DATE DUE

OCT 1974

2 OCT 1975

J. LIB.

2 9 APR 1981

J. LIB.

16 JUN 1981

SAFET LIB.

2 6 OCT 1982

تجليد
صالح الدقر
بيروت - المزرعة

والدة

أكرس قصة أو رواية "العقاب على الجريمة"
لمريم أحمد الأدهم المكيمي حتى الموت ..
"الجريمة والعقاب" - سنسميها رواية دوستويفسكي -
إلى الأبد

843
M45gA

فرنسوا مورياك

والدة

تعريب محمد عبد المجيد عنبر و عبد المجيد عابدين

67729

Cat. Mar. 1948

دار الكاتب المصري

الطبعة الأولى ... فبراير ١٩٤٧

العنوان الأصلى للكتاب
بالفرنسية
FRANÇOIS MAURIAC
GENITRIX

جميع الحقوق محفوظة لدار الكاتب المصرى ١٩٤٧

إلى أخي

الدكتور بيير مورياك

الأستاذ في كلية الطب ببوردو

أكلُ أمر هؤلاء المرضى

دليل المحبة والإعجاب

ف. م.

١

— إنها نائمة .

— بل هى تتصنع النوم . هيا بنا .

هكذا كان زوج ما تيلد كازيناف وحماتها يتهامسان حيال سريرها ، وهى تراقب ، من خلال أهدابها ، ظليهما الضخمين المختلطين على الحائط . وسارا على أطراف أصابعهما وأطرافُ أرجلهما تفرقع ، حتى أدركا الباب . وسمعت ماتيلد خطاها على السلم الرنان ، وسمعت صوتين : أحدهما حاد والآخر مبحوح . وملأ هذان الصوتان ممر

الدور الأول الطويل . والآن يشقّان مسرعَيْن ساحة الدهليز ، القارسة البرد ، التى تفصل جناح ما تيلد عن غُرْفتَى الأم وابنها المتلاصقتين . سمعت من بعيد إغلاق الباب فتنفست الصعداء ارتياحاً ، وفتحت عينيها . فوق سريرها سهم من الخشب يسند ستارة من نسيج القطن الأبيض تحيط بالسرير المصنوع من خشب المُغنة . ومصباح النوم يضيء بعض الباقات الزرقاء المنقوشة على الحائط . وعلى المائدة الصغيرة كوب من الماء ، أخضر ، مخطط بالذهب إرتج من حركة مرور القاطرة ، إذ كانت المحطة مجاورة . وانتهت حركة المرور فأنصتت ما تيلد إلى تهامس تلك الليلة من هذا الربيع الآفل (كما ينصت المسافرون ، حين يتوقف سير القطار فى وسط الريف ، إلى صرير الصراصير من حقل مجهول) . مر قطار الساعة العاشرة مساء فارتج المنزل العتيق بأجمعه .

واهتزت أرض المنزل ، وانفتح باب مخزن فى الدور الأعلى ، أو باب غرفة مهجورة . ثم هدر القطار فوق الجسر الحديدى الذى يمتد على نهر الجارون . وتسلّت ماتيلد بتتبع هدير القطار ، ثم لم يلبث أن غلب على الهدير حفيف الأغصان .

وغلبها النعاس ثم تنبهت ؛ فقد كان سريرها يرتجف من جديد ، سريرها فحسب لا بقية المنزل ، وليس من حركة مرور فى المحطة الهامدة . ومرت بضع ثوان أخرى قبل أن تدرك ماتيلد أن رعشه تنتاب جسمها فتهز سريرها وأن أسنانها تصطك بالرغم من أن حرارتها مرتفعة . ولم تستطع أن تمديدها إلى مقياس الحرارة الملقى على وسادتها .

وانقطعت رعشتها ، ولكن ناراً لا زالت تتأجج فى حشائها تتصاعد منها كقذائف البركان ؛ فقد كانت تحترق . ونفخ هواء الليل فى الستائر ، فملأ الغرفة بأريج

الزنبق مع دخان فحم يحترق ، وتذكرت ماتيلد أول أمس ، حين كانت غارقة فى دماء سقطها ساعة أن خافت على جسمها من القابلة وهى تعمل يداً لا تعرف الملل ولا توقن بالنجاح .

— لا بد أن حرارتى فوق الأربعين . . . ومع ذلك فهم لا يريدون أن يسهر معى أحد . . .

وأخذت عيناها الغاربتان تحدقان فى السقف ، فى هالة النور المتأرجحة ، قابضة بيدها على ثديها الصغيرين وهى تصيح بصوت قوى :

— مارى ! مارى دى لادوس ! مارى !

ولكن كيف تسمعها الخادمة مارى دى لادوس (نسبة إلى قرية لادوس التى نشأت فيها) وهى تنام فى مطمورة المنزل ؟ ما هذه الكتلة السوداء القريبة من النافذة كأنها وحش مستلق قد روى شبعا أو قعد يتربص ؟ ولكن ماتيلد لم تلبث أن عرفت أنها المنصة التى أقامتها حماتها من

زمن بعيد فى كل غرفة ، حتى تتمكن من أن تقفو أثر ابنها فى غدوه ورواحه ، حين يلف فى دوران الشمال ، أويذرع ممر الجنوب ، أو يعود من الباب الشرقى . ذكرت ماتيلد أنها رأت ، فى أحد أيام خطبتها ، تلك الحماة الضخمة تقف على إحدى هذه المنصات منتفضة غاضبة تدبدب برجليها وتصيح :

— لن تمتلكى ولدى ! لن تستولى عليه أبداً !

ثم عادت حرارة ماتيلد تأخذ فى الهبوط . وقد صرفها إعياؤها الشديد وانهيار جسمها عن أن تحاول تحريك أصبع من أصابعها ، ولو لتبعد عن جسمها المبلل قميصها الملتصق . وسمعت فى هذه الساعة صرير الباب العام ؛ فقد كان من عادة السيدة كازيناف وابنها أن يجوسا ، وفى يدهما المصباح ، خلال الحديقة ، ينشدان الأمكنة الخفية المبنية قريباً من منزل معهما مفتاحه ، يملكه أحد

الفلاحين . ومر بخلد ماتيلد المنظر اليومى : أحدهما ينتظر الآخر ، ثم لايكفان عن الكلام فى طريقهما إلى الباب ، وقد نقش عليه رسم للقلب . وأحست من جديد بالبرد ، فاصطكت أسنانها وارتجف سريرها وبحثت بيدها عن شريط الجرس — وتلك طريقة عتيقة كانت قليلة الاستعمال — فشدته وسمعت صوت احتكاك الخيط بالطُّنُف ، ولم تسمع له رنيناً فى المنزل المخيم عليه الظلام . وعادت ماتيلد تتقد ، وهرّ الكلب تحت السلم العام ثم انطلق نباحه الصاخب ؛ إذ رأى شخصا يسير فى الطريق الضيقة التى تفصل الحديقة عن المحطة . وحدثت نفسها قائلة : «حتى البارحة كنت عرضة للخوف!» ذلك أن ماتيلد لم تنس ليالى الرعب الجنونية التى قضتها فى هذا المنزل الفسيح ، المرتجف دائماً ، الذى لم يكن حتى لنوافذه ضلف تقيها ! كم من مرة انتفضت على فراشها صائحة : «مَنْ هنا؟»

ولكنها الآن لم تعد تشعر بالخوف ، كما لو أن هذه النار المتقدة قد وقفت حائلا بينها وبين أن يصل إليها أحد . وما طفق الكلب يهر بالرغم من انقطاع صوت الأقدام . وسمعت ماتيلد صوت مارى دى لادوس : « ما خطبُك ياپليو ؟ » وسمعت پليو وهو يبصبص بذنبه جذلا يضرب حجر السلم العام ، ومارى دى لادوس تهدئه بلهجتها الريفية : « بس ! بس ! » وبدأ اللهيب يغادر من جديد هذا الجسم المحترق . واستحال إعياؤها الشديد هدوءاً وسكينة . وظنت أنها تمد أطرافها المحطمة على الرمال ، أمام البحر ، ولم تفكر فى الصلاة .

٢

وبعيداً عن هذه الغرفة ، من الجهة الأخرى من الدهليز ، فى غرفة الاستقبال الصغيرة المجاورة للمطبخ ، كانت الأم وابنها يرقبان نشوب اللهيب وفناءه فى كتلة من الخشب ، بالرغم من أنهما فى ذلك الوقت كانا فى شهر يونيو . وكانت الأم قد تركت على بطنها جوربا مشغولا إلى نصفه ، وأخذت تحك بالإبرة الطويلة رأسها حيث يبدو قليل من جمجمتها البيضاء بين خصلات شعرها المصبوغة . وتوقف ابنها عن أن يقص بمقص أمه ورقات

من طبعة شعبية لحكم الفيلسوف إبيكتيت . ولأنه كان فيما مضى طالبا فى مدرسة السنترال ، فقد كان يعتقد أن الكتاب الذى يشتمل على أهم الحكم التى ألقيت ، منذ أن خلق البشر ، قد يكشف له بطريقة رياضية عن سر الحياة والموت . ولذلك أصبح همه كله أن يجمع الحكم من مصادرها . وكانت تسلية القص وحدها تعينه على الوقت كما كان فى حال صباه . أما فى هذا المساء فلم يكن هناك مايصرف الأم وابنها عن أفكارهما . وانتفض فرنان كازيناف على قدميه الطويلتين دفعة واحدة وقال .

— يبدو لى أن أحداً يدعو .

ومضى يجر نعليه إلى الباب . ولكن أمه أدركته مسرعة :

— لن تعبر الدهليز مرة أخرى ؛ فقد سعلت ثلاث مرات فى هذا المساء .

— إنها وحيدة .

وماذا كان يخشى من خطر ؟ ما أكثر ما يغلو فى تقدير هذا العارض ! فأخذ بذراع العجوز وهو يقول : أنصتى . ولم يكن يصل إليهما إلا صوت قاطرة وصفير بلبل فى الليل ، يصحبهما ارتجاج المنزل المستمر بسبب مناورات القاطرات فى المحطة . وسينقطع هذا الارتجاج إلى أول قطار فى الفجر . وقد تمر مع ذلك قطارات البضاعة الطويلة ، فى خارج المواعيد الرسمية ، فتزلزل الأرض زلزالا يدفع كل فرد من أسرة كازيناف إلى أن يهب من نومه مذعوراً ، فيضئ شمعته وينظر فى ساعته . ثم جلسا وقالت فيلستيه ؛ لكى تصرف انتباه ابنها :

— أتذكر ؟ لقد قرأت الليلة حكمة وكنت تريد أن تقصها ؟

وتذكر الحكمة . وكانت فى مجموعة سبينوزا . وهى

فيما يظهر : « الحكمة تأمُّل فى الحياة لا فى الموت » .

— إنها جميلة ، أليس كذلك ؟

ولما كان قلبه سقيماً ، فقد أوحى إليه الخوف من الاحتضار باختيار الحكم التى تحبب الحياة ، كما أوحت إليه غريزته بالحكم التى كان يسيغها عقله الذى كان أقل دُربة فى عالم الفكر منه فى عالم الأرقام . وتمشى فى الغرفة ، وكانت جدرانها مكسوة بالورق الأخضر وقد نقشت عليه خرائط بارزة ، وبها أريكة وكراسى مغطاة بالجلد الأسود تعيد إلى الذهن أثاث غرف الانتظار . ويحيط بالنوافذ أشرطة من القماش طويلة ضيقة ، ذات لون يحكى رواسب النبيذ . وكان مصباح المكتب يلقى ضوءاً على دفتر حسابات مفتوح ، ومقلمة فيها أسنان ريش للكتابة ، ومغناطيس وقطعة من الشمع مسودة . وبدا مسيو تيير مبتسما فى بلورة كباسة للورق . وقد رأى فرنان وهو عائد نحو أمه

على وجهها الأغبر المنتفخ تقطيبة ضحك مكظوم ، فنظر إليها كأنه يسألها ، فقالت :

— حتى هذا السقط لم يكن ذكراً .

فأجاب بأنه ليس من الممكن أن تُلام ما تيلد على ذلك ، غير أن العجوز هزت رأسها دون أن ترفع بصرها عن إبرتها قائلة : إنها عرفت كيف «تكشف هذه المدرسة الصغيرة» من أول مقابلة . وجلس فرنان من جديد قريبا من المائدة ، وقد لمع عليها المقص الملقى بين كتب الحكم المقصصة . فقال متجرئا :

— وأية امرأة ظفرت منك بالرضا ؟

هنا لك قالت السيدة العجوز فى غضب مبتهج :

— وعلى كل حال لم تظفر به هذه المرأة !

فقد وصمتها بالحماقة منذ اليوم الثانى لزواجها حين قاطعت زوجها بقولها : « لقد قصصت ذلك من قبل »

كلما سمعته يروى قصة المسابقات التى كان مغرماً بها ، أو يردد قصة إخفاقه الوحيد الذى أصابه فى مدرسة السنترال ، والشرك الذى نصب له فى الامتحان فلم يلتفت إليه ، أو يذكر حسن احتماله ذلك المساء حين اتخذ زينته وذهب فى ثوب السهرة إلى الأوبرا ليشهد قصة « الهوجينو » .

— وغير ذلك مما لا أريد قوله !

يا لها من حمقاء ! لقد كتبت على نفسها الشقاء ! فلم يمض شهران حتى عاد الابن المحبوب إلى النوم فى سرير الطالب الصغير اللاصق بغرفة أمه . وظلت الدخيلة كالوحيدة فى الجناح الآخر من الدار . ومنذ ذلك الحين ، أصبحت وكأنها أقل شأنا من مارى دى لادوس . وظلت كذلك حتى جاء اليوم الذى قلدت فيه بعض النساء اللائى كن فى عصر الإرهاب يدّعين الحمل ليتقين به المقصلة .

فالذى حدث أن الخبيثة قد كسبت فرنان مرة أخرى ، وأصبحت مقدسة لديه . فكان يشمخ بأنفه غرورا ؛ إذ توقع أن عدد أسرة كازيناف سيزيد واحداً فى الوجود . وكان فرنان يقدس اسمه مثل سيد عظيم ، فكان هذا يكيد فيلستيه ؛ لأنها من سلالة بيلوير الناشئة من « أعرق السلالات فى بلاد اللاند » وهى لا تريد أن تتذكر أنها فى عام ١٨٥٠ عند ما دخلت فى آل كازيناف كانت جدة زوجها « لا تزال ترتدى الملحفة » . ولم تجد ما يدعو إلى الصراع فى أثناء الأشهر الخمسة من الحمل . . . آه ! حقا إن العجوز كانت تعمل فى الخفاء على إسقاطها ؛ لأن العدوة كانت تستطيع أن تلد ولدا حيا . . . وشكراً لله فالقابلة قد قررت أن ماتيلد ليست حسنة التكوين ، وأنها عُرضة « للحوادث » .

— ياعزيزى إننى أفهمك . ما كنت لتهتم بالمولودة

وتحرص عليها ؛ فإن منظرها كان لابد يسوؤك ، وكان يصيبك منهـا مايصيب الوالد من ولده من المضايقات والتكاليف ، ولاسيما أن ماتيلد لاتستطيع أن تغذيها ؛ فهى لاتصلح لذلك ، فكان لابد لها من مرضعة ، أما أنا فلقد لبثت على قدمى ثمانية أيام بعـد ولادتك ولم أفطمك إلا بعد ثمانية عشر شهرا ، وفعلت ذلك أيضا مع أخيـك البائس هنرى .

فقام وقبل جبين والدته ، وقال فى عظمة :

— لا غرو ، فانت المثل الكامل لمؤسسة أسرة .

وجلس من جديد ، وبدأ أنين المقص .

— أخبرنى يا فرنان ماذا كنت تصنع ببنت صغيرة ؟ وما كانت تمل من هـذا الإلحاح ؛ إذ كانت تراقب انتصارها عليه :

— تصوَّر بنتاً صغيرة تقوم تربيتها على كراهيتنا .

وثبّت فى الفضاء عينين جاحظتين كأنه يبحث فيه عن ذلك الشبح الوهمى والخيال الواهى الذى كانت أمه تخترعه . ولكن شيئاً من ذلك لم ينل من قوة خياله .

لم يُتح له أن يرى هذا المولود الصغير الذى كانت زوجته الشابة تخلقه فى مخيلتها لكى تتعزى به عن موتها وحيدة فى غرفة . فقد خلقت من هذه اللفافة الدامية التى حملتها القابلة شخصاً حياً تستشعر ماتيلد عضته فى ثديها . وما صورة وجهه لو ولد حياً ؟ اكتشفت المحمومة فى أغوار قلبها أنه لا يشبه أى وجه عرفته — وجه متوسط الحسن ، يعلوه الهزال والضعف ، له فى طرف شفته اليسرى تلك العلامة التى كانت لدى ماتيلد . « وقد كنت سأظل جالسة فى الظلام بالقرب من مهده حتى يمر القطار السريع الذى سيفزعه . » ولم يكن لهذا العالم الخيالى الذى حبست

فيه نفسها مع الطفلة المزعومة صلة بهذا الوجود. فليس فى إمكان من يكرهها أن يطاردها فى عالمها هذا . وها هو رأسها المثقل حيث كان الدم يندفع لم تستطع أن تتخلص من سؤال ملح معقد سبب لها العذاب : هل يعلم الله أية شجيرة كان مقدراً أن تنمو من هذه البذرة الميتة ؟ هل يعلم الله ماذا كانت تؤول إليه تلك العيون المنطفئة ؟ ألا نجد بعد الموت ملايين البشر الذين عاشوا من قبل ؟ ما الذى كان مقدراً لهذه اللفافة من اللحم فى طى الزمن . . . ؟ وهنا كلّ فكرها ؛ فقد ارتدت عنها لفحة النار ، وتظاهرت الحمى بمغادرة جسمها المنتفض المغمور بعرق لزج ، وظلت فريسة هذا الاضمحلال الذى لم يكن إلا بداية الموت . وأحست بأن وحشاً مفترساً قد ألقى بها جانباً . آه ! لعلها تعود من لحظة إلى أخرى ، راقبت وهى على ظهرها إقبال الرعشة نحوها ، ورصدت علاماتها

ولكنها لم تقبل بعد ، فسبرت أعماقها كمحلق فى سماء مكفهرة لا يستطيع أن يأمل انقشاع العاصفة عنها . ربما الحياة ! الحياة ! وجرت على خديها دموع ثقيلة سخينة فضمت يديها المزجتين وقبضتهما : « اذكرى أيتها العذراء النبيلة أننا لم نسمع حتى الآن أن أحداً ممن اندرجوا تحت لوائك وناشدوا معونتك قد كُتب عليه الإهمال والهجران . . . » وقذفت من جديد على ساحل الحياة ، وعادت تسمع موسيقا العالم الليلية ، والليل يتنفس فى الأوراق . والأشجار الباسقة تتهامس تحت ضوء القمر فلا ينبه همسها العصافير . وعبرت موجة من الهواء النقى المنعش المقبل من المحيط فسرت على قمم الصنوبر الكثيفة ، وفى حقول العنب الواطئة وحملت أريج الزيزفون القائم فى الحديقة ، ثم تلاشت أخيراً على هذا الوجه الصغير الطليح .

٣

بلغ الإعياء منها مبلغاً كبيراً ولكنه كان عذباً لطيفاً كان قلبها وحده يدق بجنون نسبي وكانت لاتحس معه بألم. لا، لا. إنها لن تموت، ستحيا ولن تسمح للعدو أن يسيء إليها. ليتها تحمل مرة أخرى! حينئذ ستضطر العدوة إلى الاستسلام. فحسبها أن تكتم أنفاس حماتها. أما فرنان فما أيسر أن تلجمه وتمسك بزمامه! ولقد أخطأت بحماقتها حين أسلمت نفسها بعد الزواج إلى طبيعتها المرحة دون أن تكتم شيئاً منها. فتمادت في السخرية التي أحبتها وقاست من جرائها في أيام خطبتها، واعتقدت أنها سلاح يكسبها

المباراة التى لم تبدأ بعد . وكانت ماتيلد تعمل كمدرسة عند آل لاشاسينى . ومن خلال شجر الحناء الذى يفصل بين أملاك آل كارينياف وحديقة آل لاشاسينى ، فكرت الفتاة : ما كان أسهل إشعال نار الرغبة فى قلب رجل خجول قد حبا إلى الخمسين ، ولا سيما وقد وقعت السمكة الكبيرة بإرادتها فى الشرك المنصوب . وكان على ماتيلد وهى ترقب ما يدور من مناقشات بين الأم وابنها — أن هذا الرجل التقطها كما تلقط الكرة وأنها لن تكون إلا سلاحاً فى يده يستعين به فى الصراع اليومى الذى كانت الأم تتغلب فيه حتى الآن على ابنها . أما فى هذا المساء ، فمع كونها صريعة فى هاوية من الإعياء ، فإنها تأمل أن تنتصر من الآن فصاعداً على ضحكتها المسترسلة وتخدش سخريتها التى أثارت غضب فرنان من قبل ، ذلك الصنم الذى تعود أن يُعبد . ولقد نسيت إن حياة بائسة بأكملها

قد كونتها على هذا المنوال ، وأن قلبها قد أصبح جامداً كالصخر ، وأنها تسلحت بالطبع الخشن ، وأقامت السخرية حداً بينها وبين العالم .

عاشت فتاة صغيرة فى منزل منخفض من شارع دى كوديران — وفى بوردو يطلق على مثل هذه المنازل اسم دكان — وكانت هى ، وجان أخوها الأصغر ، يرسلان ضحكات خفية على أبيهما — وكان مدرساً للسنة الثالثة بمدرسة الليسيه — إذا ما انقطع عن تصحيح الواجبات ، من جراء إصابة عينيه بالسُّدَد . فقد كان مصباح المكتب لا يوزع الضوء كاملا فى الغرفة ، فما كان يضىء منه إلا كفَّين نحيلتين ممسكتين بكراسات ملأى بخطوط الأطفال . وكان الضوء يكسب وجهه الذاهل خضرة غريبة . وعرفت ماتيلد وجان ، منذ ذلك الحين ،

أن أمهما لم تمت فى بوردو كما كان مزعوماً ، ولكنها ماتت تحت سماء أخرى ، وبجانب رجل آخر . وعلى كل فقد كان ضحك البنت وأخيها على أبيهما بريئاً من كل خبث ؛ إذ لم يسمعاه يوماً يشكو أو يتألم — فريسة مطاردة تلوذ بالصياح .

إنه لنصر هائل لهذا الطالب النورمالى ، المنشط الذقن ، والمعتنى بها حسب عادة أهل عصره ، فى العام الذى ألقى فيه عشرة محاضرات على تلميذات مدرسة ر*** فى موضوع « مرض رينيه » . فقد فاز بفتاة من آل كوستو (وهى بنت أخى أحد مجهزى السفن ، وكان أبوها قد أفلس فى أحد اصطبلات خيول السباق) إلا أن فتى من عشيرتها أخذ يتردد عليها ، ولم يقدر الرجل على حمايتها منه وهكذا كانت طيبة قلب هذا المدرس وبالا عليه ، فبينما لم يحضر أحد من آل كوستو فى عقد قرانها ، غدوا

يتكلفون رد تحيته بعد أن خانته امرأته ، ثم أدى ، الإجهاد العقلى ، القصير والمتوالى ، إلى حالة لم يستطع معها أن يقوم بتصحيح كراساته بمفرده ؛ فكانت ماتيلد ، وهى طالبة فى ذلك الوقت ، تقوم مقامه ، كما كانت كل صباح تعينه على الصعود فى ترام « الكروابلانش » وتصحبه إلى الشارع الواقع خلف الاليسيه حتى لايستطيع أحد من الطلبة أن يتعرف عليها ، وتظل واقفة ترقبه على حافة الرصيف وهو يدلف بعيداً على ركبتين ليلتين متجهاً نحو حجرة الدراسة حيث ربما كانت تنتظاره ضوضاء التلاميذ . ومع كل فقد كانت لا تزال تضحك فى هذا العهد المرير من قول ابن خالتها لاشاسنى « مبعوث العناية الإلهية » إنه لا يتصور كيف أن المدرس لم يفكر فى الاستقالة من تلقاء نفسه ، أومن قول السيدة لاشاسينى مراراً (وكانت من آل كوستو) إنها لو كانت فى مركزها لاستغنت

— بلا شك — عن عرفة الاستقبال والخادمة . كذلك كانت تسخر ماتيلد من أن أباها وأبناء خالتها يفضلون جان عليها تفضيلا ظاهراً . فقد كانوا يعجبون بوجهه الملائكى وخصلات شعره القصير ذات لون الذهب المحروق ، وأسنانه الحادة ، وضحكته المنعشة . وكان من عادة جان ، إذا حل المساء ، أن يهرب من نافذة غرفة الاستقبال . فتظل ماتيلد ساهرة حتى تفتح له مزلاج الباب العام حين يعود بعد منتصف الليل وعيناه الساذجتان الفاحشتان تحيط بهما هالة من الجهد اللذيذ ، ويداه ملوثتان وقميصه لايزال مفتوحاً ، وعلى رقبته المؤنثة كدم البقلة الأخيرة . فكانت تستقبل ملاك الفجر الذابل بسخرية جافة دون أن تؤنبه . وحدث فى عهد ما ، أنه كان عشيق إحدى راقصات مسرح البوف فحمل إلى مصرف الرهون بعض القطع الفضيه على مرأى من ماتيلد ، ولكنها

لم تفكر فى أن تنبه أباها أو آل لاشاسينى . وقد اعتقدت أن كل شئ قد رجع كما كان حين ردّها إلى موضعها بدولاب الأدوات الفضية نادماً على ما فعل ندما رقيقاً ، حتى إن ماتيلد — وما كانت تتبسط إلا بقدر — قبلت وجهه الملائكى العزيز ، وقد أصبح أقل نضارة مما كان أيام ربيعه ، فتلوث بحبوب صغيرة قذرة . وعلى كل فقد تعود الملاك أن يطير فى كل ليلة من ذلك الربيع المشئوم . ومع كونه ملاكا ، فلم يكن جسمه من اللطافة بحيث يستطيع أن ينفذ من خلال الحائط حين يقدم فى المساء ، فكان لزاماً على ماتيلد أن تظل ساهرة حتى تفتح له المزلاج . وقد يرفض الملاك النوم مطرقَ البصر محركا فى جيبه قطع الذهب ، وقد يقذف بها فجأة على المائدة قائلا إنه سيتحصل عليه ولو لم يكن موجوداً . وتفوح منه رائحة التبغ والمسك والفراش ، ويدندن فى أغنيته « لا .

لن تعرفى أبدا — يامن أستعطفك اليوم — أأحبّك أم أكرهتك . . . » وهى ترجوه ألا يوقظ الأب بصوته ، وهو يصمم على أن تذهب إلى المطبخ ؛ لتبحث له عن فضلات الطعام ، فيبعث ذلك الدهشة فى ماتيلد ، وتجد فى وجبة ما بعد منتصف الليل تسليه مرة . وفهمت أحاديث الغلام فهما سيئاً : ورغماً عن وجود هذا الولد الفاسق فإنها لم تجد ضيراً من أن تنصت إلى هذره حتى ساعة الترام الأول المرتجفة .

وأخيراً انفجرت الفضيحة ، وسرعان ما أخمدت بفضل ناظر المدرسة ، وآل لاشاسينى وآل كوستو . ولم تعرف ماتيلد شيئاً مما حدث ، إلا أن البوليس قد تدخل ، وأن آل لاشاسينى يستحقون الشكر الجزيل ؛ لأنهم استطاعوا أن يرحلوا جان إلى السنغال حيث يقتنى آل كوستو عدة مصارف . وظل الوالد بضعة أشهر وهو فى

ذهول نسبي حتى تمنى آل شاسينى له الموت لصالحه ولصالح غيره . وتنفسوا الصعداء يوم وفاته وذكروا مرارا أنه يوم خلاص وتحرير . وكانت السيدة لاشاسينى تعلم أنها لو كانت محل ماتيلد ما كانت رقتها لتجعلها تصمم على ارتداء السواد لأن تلك العائلة هى التى ستدفع ثمنه كما جرت العادة . وقد دفعوه وأخذوا اليتيمة إلى منزلهم الكائن فى لانجون حيث كانوا يمضون فصل الصيف . وأوصوا ماتيلد ألا تتعب طفلتهم السقيمة القشّة . وعرف آل لاشاسينى عن قريبتهم الفقيرة أنها « حاذقة تعرف كيف تختفى » والواقع أنها كانت تختفى عند تقديم الحلوى ، حتى فى أثناء الطعام كان يقال إنها تطفئ شعرها الأشقر ، وأنها تظل مطرقة لا تشخص إلى شئ ، وأنها تنتقى لفستانها لونا يشبه خشب الجدران . وإذا ذكرت الأحاديث الخاصة بالأسرة فى حضورها ، لم يحترسوا من وجهها الباسم الذى يرى ويتظاهر بأنه لا يرى ويسمع ،

ويتصنع أنه لا يسمع . عند هؤلاء القوم كانت ماتيلد ترضى « إلى آخر مدى » طبيعتها الساخرة التى سببت حتفها فيما بعد عند آل كازيناف ؛ إذ دخلت بيت الزوجية وهى على هذه الطبيعة الجافة الجدبة : أرض حزينة لا ماء فيها ! فهى التى لا تعرف عن الرجل الكريم إلا صورة أبيها الضحكة السخرة الذى كان أجره فى المدرسة أقل من سائق السيارة (وكان يجمع فى علبة التبغ أعقاب سجائره) . ولا تعرف عن الحب إلا ما جربته فى صورة أخيها الملاك ذى الريش القذر الذى كان يهبط فى الليل على باب الدكان العتيق . وها هى كانت تنظر خفية إلى آل شاسينى بقسوة وحشية وكانت تقول إنهم فى درجة واحدة من السمنة لأن همهم منصرف إلى غذائهم ، وأن الشحم يأكل عيونهم ، وأن للزوج والزوجة ، أو قل للأخ والأخت ، من اللحم والأشداق اللامعة

بحمرة خالدة ، صورا متماثلة ؛ فهم يشبهون — على حد تعبيرها — غيلان البحر ذوات الأنامل المنقبضة ، ولا طموح لديهم فى أكثر من ابنتهم هورتنس التى كتبت عنها ماتيلد فى كناشتها السرية : « إن حول رقبتها عددا كافيا من اللآلئ تخفى به معالم مرض الخنازير . » وما أشد احتقارها لهم حين كانوا يتكلمون على المائدة بطاء ، ويخللون بين الكلمة والأخرى بلقمات كبيرة ! « إنهم لا يتابعون سير الحديث إلا بعد الازدراد ، مثلهم كمثل من لا يضحى بالطعام فى سبيل الكلام . » وألفت كلمة مناسبة لوضعها على قبورهم : « أكلوا واستبقوا الفضلات إلى جانبهم . »

ولكن شخصين آخرين من وراء شجر الحناء الحاجز ، كانا يصرفانها عن لهوها مع آل لاشاسينى . ويمتد هذا الحاجز على طول ممر الجنوب الأثير عند فرنان كازيناف ،

ويفر فيه من الرقابة الاموية .كان الابن الشيخ يتمشى ملقياً نظرات خائفة عن يمين ويسار ، ويد خن سيجارة خلسة كما يفعل التلميذ . فإذا حدث أن انقضت عليه فليستيه من إحدى المنصات التى كانت تراقبه منها ، لم يكن لديه من الوقت مايمكنه من دفن باقى السيجارة فى حوض زهر . وفى ذات يوم رأته ماتيلد يلتهم فى الخفاء شمّامة كانت حرارة أحشائه تمنعه من أكلها . وقذف ببقاياها من فوق الحاجز فأصيبت الجاسوسة فى وجهها . فلفّت بقاياها دليل الاتهام فى صحيفة ، وذهبت بها إلى آل كازيناف تخبر مارى دى لادوس أن لصا كان يسرق فى الحديقة ، ثم عادت تتربص وراء الحاجز ، حيث وصل إليها صدى العاصفة المنفجرة.

غير أنها قد روقبت فى كثير من الأحيان ، وكانت تنكر أنها ترى كازيناف الضخم الذى يحكى فى ضخامته إله

الينابيع ، وهو يفرّق فروع البشملة والبندق والحناء . وفى الحقيقة لم تكن تتطلع من وراء هذه النظرة البلهاء إلى آمال واسعة : فالفتاة الجارونية قد تعودت من الرجال مثل تلك النظرة الحرجة والالتفات الفائل . إلاّ أن السيد لاشاسينى كان يضايق ماتيلد ويثقل عليها : فزعم أن فرنان كازيناف سأله بعض أسئلة خاصة بالفتاة وطبيعتها وذوقها ، وأراد أن يعرف ما إذا كانت أمها من آل كوستو . . . وكيف أن ماتيلد لم تذكر حينئذ المحاورات التى ضبطتها من خلال الحاجز ، ولم تكن تدرك منها إلا الجلبة والضجيج (فقد كانت الأم والابن يتهاديان متكاتفين كسفينتين باليتين ، ويبتعدان عن ممر الجنوب ، فلا يظهران إلا مرة أخرى عندما ينتهيان من لفة الدوران .)

فى هذا المساء خيل إلى ماتيلد أنها تسمعهما فى ظلمة

الليل، وقد اشتد تعبها فلا تستطيع أن تمد أصابعها إلى لحافها. انها لم تشعر بالرعشة بعد ولكن هل تستطيع أناملها أن تبرز من هذه الهوة السحيقة من التعب؟ أما لهذا التحطم من نهاية؟ إنها تعتقد أن جسمها ليس متحطماً بالمرض ولكنه بضربات الرجل والمرأة العجوز. تتصور الفتاة انهما الآن فى غرفة المكتب وكم انقضت فيها سهرات غبراء! «ها هى ذى تصلح قطعة من الحطب، وتبعد المقاعد، وتضع حوافظ الشرر، وتقول لولدها: لم أقبلك. سأذهب لأثنى أطراف اللحاف تحت المرتبة.»

تذكرت ماتيلد كم كان قلبها يخفق يوم أن اختفت وراء الحنّاء؛ لتراقب الزوبعة الصاعدة من الصوتين المختلطين: رأت الأم والابن يظهران أخيراً من نهاية الممر

ويصيح فرنان بأعلى صوته متهما إياها بأنها ، فى أثناء الانتخابات الأخيرة ، اضطرته أن يرفض عرض لجنة الحزب الراديكالى ، ولم تسمح له بأن يحتفظ بمنصبه مستشاراً . ووقفا على بضعة أمتار من ماتيلد المتربصة ، وقالت له العجوز :

— قصدت أن تتمتع بالحياة قبل كل شىء . أتسمعنى ؟ تتمتع بالحياة !

— دعيك من هذا ! فان الطبيب دلوك كان يؤكد لى أنى فى غاية من القوة إلى الأمس وأنى مبنىّ بالجير والرمل ، وأنى سأعيش بعدكم جميعاً . فأنت قصدت أن أعيش قريباً منك . هذه هى الحقيقة .

— أنت مبنىّ بالجير والرمل ؟ دلوك أخبرك بذلك ليتملقك . كأنك لم تشك منذ أن أصابتك الحمى القرمزية وأنت فى العاشرة ، بأكداس من الآلام عجز الأطباء عن تشخيصها ! أضف إلى ذلك التهابك

الرئوى المزمن فى سنة تطوعك للجيش . . . وغير ذلك مما لا يحصى .

ولما ظهرا من جديد بعد طوفة أخرى ، عرفت الفتاة أن موضوع النقاش قد تغير مجراه :

— إنك لا تريدين أن أتزوج حتى تسيطرى علىّ أكثر من الآن . فأنت . . . أنت التى تمنيت وحدتى وانعزالى .

— أنت تتزوج أيها الماجن البائس ! أريد أن أراك تتزوج .

— لا تتحدينى .

فهزت العجوز كتفيها مبهورة الأنفاس ، وهى تروّح بمنديلها على وجهها الأدكن . فى ذلك اليوم عرفت ماتيلد ما جهلته بالأمس . عرفت ما أسست الأم عليه اطمئنانها : فقد كان يحدث كثيراً عقب المشاجرات المسائية أن يأخذ

فرنان القطار إلى بوردو حاملا حقيبته الخفيفة ؛ ليصل إلى هذه المرأة التى كانت السيدة كازيناف تشير إليها دائما تحت لقب « مزاجه » .

— ألا تعلمين أن لفرنان مع الأسف « مزاجاً » فى بوردو يسكن فى شارع هجورى ؟

وتردف قائلة : « إنه وجهها توجيهاً طيباً ، فمن الممكن أن يطمئن المرء عليه فلن تقضى على ماله . » وعلى كل فلم يستطع مزاجه أن يستأثر بفرنان أكثر من أيام ثلاثة : ثم يعود وهو يرتعد من البرد ؛ لأنه كان ينسى ملابسه الداخلية ويأتى مثقلا بالنوم ؛ إذ أن من عادته ألا ينام مع شخص آخر — وقد أثارت سخطه المطاعم والنفحات . وكان يقدم أخيراً مقعداً كسير النفس ، لأن هذا النوع من المجهود كان يتعب مراكز العصب .

— سآخذ غداً قطار الساعة العاشرة صباحاً .

— على راحتك يا ولدى . مع السلامة .

تذكرت ماتيلد ما كان يعويان به من هـذا التهديد وهذه الإجابه . وتذكرت أن تنفيذ القدر المحتوم قد بدأ منذ ذلك الحين ؛ فلقد عقدت النية حين سمعتهما على أن تأخذ هى أيضاً قطار العاشرة صباحاً .

لن تخدعى نفسك ، ولن تشعرى برعدة بعـد الآن . كنت توهمين نفسك وهما بأنك مصابة ببرد من ريح المساء أو من هذا العرق المتصبب من أناملك ، ولقد كتبت على نفسك الشقاء . فلا شئ من الحنان قد جذبك نحو هـذا الشيخ . لقد دفعتك غريزة الضباب الى البحث فى كل مكان عن منفذ لحياتك المحكومة المرءوسة . وإن من أخطر الأمور أن نبصر الأشخاص بمنظار المنفعة ،

وألا نبحث فيهم الاعن قيمة استغلالهم . كنت تستجوبين كل مخلوق ، وكل حادثة ، وتحيلين فيها الطرف كأنها بطاقات تتأملين فيها سبيل النجاح . كنت تدفعين كل باب موروب — أسيرةً لا تبالين بما يشرف عليه الباب من خلاء أو هاوية . ولاشك أنك ما كنت تتصورين أن كل ماصنعته من الحيل قد أفلح فى هذا الصباح حين احتجبت بطبيب الأسنان ، وأخذت تذكرة الدرجة الثانية إلى بوردو وجلست حيال فرنان كازيناف . . .

الآن آمنت ماتيلد: فالعاصفة القاتلة تعود فتثنيها وتهزها وتمرق إلى أعماقها ، وتعمل على اقتلاع شجرة صغيرة نابضة بالحياة . تذكرت أنها كانت تصيبها الحمى وهى صغيرة ، فتلهو باصطكاك أسنانها. فلم لا تلهو الآن بكل جوارحها ؟ ما أشد اهتزاز السرير ! إنه ما كان يهتز بهذه القوة فى المرة

السابقة . ومن أعماق هذه العاصفة ، أحست بهدوء الليل إحساساً غريبا حول جسمها الأخيذ ، وأصغت فى عالم حالم منيع إلى دفيف العصافير والقمر يوقظها ، وإلى الريح اللينة وهى تكاد تهز أعلى قمم الأشجار . وحيدة ! وحيدة ! أين أبوها ، وكان يحضر ليجلس قريباً من سريرها أثناء مرضها ، وهى طفلة ، ويعبث بشعرها الندى بيد خرقاء ! وعلى ضوء مصباح النوم يظل يصحح الواجبات حتى تحل ساعة الدواء . الموتى لا يعينون على أن يلحق بهم أحد من الأحياء الذين أحبوهم . ونطقت بصوت جهير اسم أخيها جان فربما لا يزال على قيد الحياة . وتمنت بإلحاح أن تعرف عنه شيئا بالرغم من أنه لم يُجب على أى خطابٍ منها . . . فأين غرق هـذا الغلام الضعيف ؟ لا قشعريرة الآن . لقد دخلت فى موقد من الحمى الفظيعة ؛ أصبحت كلها تحترق كصنوبرة صغيرة . ورأت ريحاً منتنةً مغمورة

بموجة من زبد البحر لا تكاد تفارقها وتكشف عن نتنها حتى تعود إليها فتغمرها من جديد ، رأتها وهى على شاطىء قفر تكاد تنقضّ عليه سماء من النار. وبالرغم من أن هذا الوجه قد تحطم بصورة بشعة فقد كانت تعلم أنه وجه أخيها جان . ولم تكن تناجى فى هذيانها إلا أخاها فلم تحبب شخصاً غيره ، ولم يحبها أحد سواه ، وبات جسدها يحترق بالموت ، وما كان قد احترق بالحب من قبل ، وما تهيأت ماتيلد بسقم الوجد وفناء الهوى ، لموت الأبد وفناء الجسد ، ولكنه القدر قد شاء أن يكون هذا الجسد على وشك الانتهاء قبل أن يعرف سره الشخصى .

٤

بعد ذلك بساعة أشعلت الأم كازيناف ثقاباً ونظرت فى الساعة — ثم ظلت لحظة مصغية ، لا إلى الليل الذاهب المتجمّع ، بل إلى أنفاس ولدها المعبود من وراء الحائط . وبعد أن حدثت نفسها برهة تركت مخدعها وأزلقت رجليها الرهلتين فى حذاء منزلى وخرجت من غرفتها وهى تمسك الشمعة ، ولبست رداءها البنى ونزلت السلم وسارت فى الممشى ، ثم عبرت الدهليز المهجور ووصلت إلى أرض العدوة ، وتسللت بخفة ، ما استطاعت ، ودرجات السلم تفرقع تحت ثقلها ، ووقفت تصغى . ثم استأنفت سيرها ، وأطفأت

شمعتها وراء الباب فلا حاجة إليها ، وأرهفت أذنيها . وبدا مستهل النهار تحت السلم أدكن اللون. لاأنين ولا شكوى، ولكن صوت غريب أشبه بصوت صَنْجٍ مختنق . أسنان تصطك ، تصطك . وأخيرا تصاعد نحيب وأنين ... الله وحده يعلم ماذا كان يعبّر عنه وجه غول البحر وهو يرهف أذنيه . إن عدوتها تحتضر على فراشها . وتراءى لها أن ترجع وتترك ما يجب أن يأخذ مجراه . وترددت العجوز ، وابتعدت ، ثم عدلت عن فكرتها ولفّت أكرة الباب .

— من هنا ؟

— أنا يا بنتى .

لايكاد مصباح النوم يضيء الغرفة ، فقد غلب على نوره صفاء رطبٌ يتخلل الشيش . نظرت ماتيلد إلى كابوسها الذى يقترب ، فصاحت وأسنانها تصطك :

— دعيني ، لست في حاجة إلى شيء . هذه حمى خفيفة .

وسألتها العجوز هل تريد قليلا من الكينين .

— لا . لا شيء . لا أريد إلا الراحة ، لا أريد إلا أن أدور نحو الحائط . اذهبي .

— على راحتك يا بنتي .

قالت ما عندها وأدت واجبها ، فلم يبق ما تُلام عليه . فلتتحقق الأقدار .

رفعت ماتيلد يديها وهي تعبر عن إشارة اللعنة ووضعتهما لحظة أمام عينيها حتى بعد أن هربت عدوتها . وأدهشها لون يديها البنفسجي . وإذا بقلبها مخبول كعصفور يختنق وأجنحته تدفّ بأشد ما تكون سرعة وضعفا . وحدقت عن كثب فلم تجد إلا أظافرها الزرقاء .

وبالرغم من هذا الضيق البالغ والعذاب الأليم، فهى لا تفقد فى أبدية تلك الليلة وهى على شفا جُرفٍ منها . ولما كانت ماتيلد وحيدة فى هذا العالم، فإنها لم تحس بأنها مشرفة على الموت . ولو كانت أحبت لاضطرها العناق إلى التخلص من قبضة الوجود . فما كانت تريد الفراق طالما لا تعرف الألفة والمودة . لا صوت رهيب على سريرها يذكر اسم إله جبار، ويهددها بمغفرة قاسية . لا وجه يذرف الدمع عليها ويحزن على فراقها، فيتيح بذلك لها مراقبة هروبها المنحدر إلى ظل الموت خطوة خطوة . لهذا ظفرت بالميتة العذبة . . . ميتة الذين لم يحبّهم أحد .

٥

— أسمعت ماذا قال لك دُلوك ؟

هز دلوك تحت جسمه الضخم فُسحة السلم ، وبقى باب الغرفة التى تثوى فيها الميتة موروبا . وسمعت مارى دى لادوس تتنخم . عرف دلوك بعد ثلاثين عاما فى مهنة الطب حالات التهاب حمى النفاس : فهل لفرنان بعد ذلك أن يعلمه مهنته ؟ بعد السقط بثمانية وأربعين ساعة لم يكن هناك ما يدعو إلى السهر على المريضة . . .

— حتى ولو جعلتَ من يسهر عليها ؟ فالمسكينة لم تمت

من الالتهاب ، وإنما قلبها قد خفق. ولولاه لقاومت ثلاثة أيام على الأقل . لقد صادفت قلوباً جاهدت أكثر من شهر . أتذكر حين فحصت السيدة فى نزلتها الرئوية وأريتك أبهرها ؟

كان زجاج السلم الكبير يكدِّر زرقة السماء ، وقالت له أمه وهو يخلص منها ذراعه :

— أسمعت يا عزيزى ماذا قال لك دلوك ؟

فنطق بعد أن سألته فى المرة الثالثة ، وهو فى مظهر النائم الذى يتكلم :

— كان يجب أن نجعل من يسهر عليها .

ومد يده إلى دلوك يصافحه من غير أن ينظر إليه ، ثم مضى إلى العمود الأسود الناشئ من رؤية الجزء المورب من الباب ، ودخل فوجد مارى دى لادوس منحنية على السرير ، وجلس بعيداً عنها قريبا من المنضده الصغيرة ، وأدرك أن مارى قد انتهت من تضفير الشعر الذى كان

لا يزال نابضاً بالحياة. وهزت حركة القاطرة كوبا من الماء. وسمع فرنان أمه ودلوك يرفعان صوتهما على فسحة السلم فشغل ذهنه فى محاولة فهم ما يقولان: ألم ير جثة من قبل؟ نعم منذ ٣٧ عاماً رأى جثة والده فى غرفة الدور الأول التى أصبحت غرفة المكتب. وكم كانت أمه هادئة! ويذكر الكلمة التى رددتها وهى تقبله: «تلك حياة جديدة تبتدئ...»

دخلت أمه فى يدها البرقيات، وراقبت ابنها الساكن. وتصاعدت من الحديقة أصوات راهبات دار الضيافة وسيدات أخر، فهل يريد فرنان أن يُدخلهن؟ فأعطى إشارة بالرفض، وأخذته أمه بيدها:

— تعال بنا يا حبيبى: أنت أدرى بصحتك؛ لا تبق هنا؛ هذا يؤثر عليك.

فأفلت يده منها دون أن يلفت رأسه. ونزلت لكى

تصرف الزائرات ثم صعدت . وعادت ترجوه أن يذهب لينال قسطا من الراحة ، ساردة له الأسباب التى تعودت أن تذكرها له :

— لم يعد من صالح أحد أن تتعب ، فإذا مرضت فسوف يتفاقم أمرنا سوءاً . . .

وأخيرا تكلم وهو منصرف عنها :

— كم كانت الساعة عندما حضرت لتصغى إلى الباب ؟

فأجابته أنها ربما كانت الساعة الرابعة .

— وأخبرت الطبيب أنك سمعت أسنانها تصطك .

— إننى استبعدت بعد روية وتفكير أن يكون هذا الصوت ناتجاً من احتكاك الأسنان .

— فلماذا لم تعودى ؟

— قالت لى إنها غير متألمة ولا تشعر إلا بالحر . . . وإنها رفضت كل شئ حتى الكينين ، فانصرفت مطمئنة جدا .

— لم تكونى مطمئنة جدا ؛ لأنك عدت فى الساعة السادسة لتتأكدى من . . .

فلم تحر جوابا وانزعجت — لا لأنها استجوبت كما يفعل القاضى ، بل لأنها اكتشفت نبرة حزن فى صوت ولدها العزيز . فكانت تعلل نفسها قائلة : « لعلها ذبذبة الضمير . . . » وتردد لنفسها : « لا ألم عنده » ولكن أى فزع يصيبه ! إن ماتيلد لم تكن تستطيع أن تطيق نظرة من العجوز على جسمها العنيد ، العنيد إلى الأبد . وكان لزاما عليها أن تنزل لكتابة عناوين البطاقات ، ولكنها لا ترضى أن تتركهما فريدين . لقد ألقت آخر سهم فى كناتتها لتحول دون وجودهما وحيدين ! لقد اعتراها الخذلان مما قد أحست به ، وتذكرت صورة للبابا فى كتاب ميشليه المصوَّر — ذلك البابا الذى نبش قبر سلفه يريد أن يحاكمه ، ويحكم عليه ، ويهين مومياءه . . .

لم يبق إلا ليلة واحدة حتى توضع فى الصندوق ، ويضم جنتها غلاف من الرصاص ، ويحول دون نظرة فرنان إليها تابوت ذو ثلاثة أجزاء . ثم لن يرى هـذا الوجه بعد . ولـكن ، ما أشد لوعته وهو يتفرس فى وجهها ! لم يسبق له أن نظر بمثل تلك النظرة الصامته الحزينة . ومن جديد اقتربت منه وأخذت بيده متوسلة آمره :

— تعال !

فدفعها عنه . وابتعدت نحو الباب . وكم بدا لها هذا الوجه البعيد النائم الهادئ منبسطاً سعيداً محبوباً ! نزلت منبهرة . وبدأت تكتب العنـاوين ، واستعادت وهى بعيدة عن الميتة رباطة جأشها . لِمَ تذهب فى أفكارها شططا ؟ أليس فرنان قد أصبح ملـكا لها دون منازع ؟ ولقد حضرت إليها مارى دى لا دوس ، وقالت إن سيدها يرجو سيدتها ألا تنتظره للغداء فابتسمت ؛ فقد كانت

مطمئنة إلى أن الراحلة لن تحتفظ به وقتا طويلا . فهى تعرف أنه من هذا النوع الذى لا يعذب نفسه فى سبيل جثة . ولكن لذته الكبرى كانت تعذيب أمه ، فإنها ارتكبت خطأ ، حين ادعت إبعاده بالقوة ؛ فلو كانت أظهرت عدم الاكتراث لكان ذلك حسبه منها . . . وعلى كل فسينزل للعشاء ، وليكن ما يكون .

اضطرت طوال النهار ان تستقبل السيدات فى غرفة الاستقبال المغلقة الشيش ، المحجبة المرايا ، المغطاة الكراسى ، وكن يرتدين السواد ويتهامسن فيما بينهن ، من تحت النقب ، ويمتدحن شجاعة السيدة كازيناف ، ويتمنين أن يقدم لهن حوالى الساعة الرابعة أيسر الطعام ، ولو بسكويتة صغيرة ، وذلك إما لرغبتهن فى أن يقال إنهن لم يضيعن يومهن سدى ، وإما لأن الموت قد

بعث فيهن غريزة الطقوس العتيقة ، وهى الرغبة المبهمة فى تناول الطعام الذى يكسب الروح سكينة وسلاما . إلا أنهن اضطررن أن يغادرن المكان وهن جائعات ، ولما ودعت فليستيه آخر سيدة منهن سألت مارى دى لادوس إذا كان سيدها قد نزل ، فأجابتها أن سيدها لا يزال فى الدور الأعلى ، وأنه طلب ، فى الساعة السابعة بيضة مكسورة فى المرق ، وطلب أن يحضر له « الروب » والحذاء المنزلى وزجاجة النبيذ ارمنياك . وكانت دائما تقول عنه : إن سيدى كسائر أفراد أسرة پيلوير ، يظهر بالشر أحيانا ولكنه فى دخيلة نفسه خير من رأيت . . . وأحست مارى دى لادوس أنه ما كان لها أن تضيف كلمة ، بالرغم من أنها لم تلمح ، فى الدهليز المظلم ، إلا سيدتها تصيح فيها وهى كتلة لا تبدى حراكا :

— عودى إلى مطبخك يا وقحة .

وأعطت لها الأمر بتلك النغمة التى كان پيلوير الهرم، منذ أربعين عاماً، يستعملها إذ يصيح بمارى دى لادوس، حين تترك البنت الصغيرة من فرط تعبها، تسقط من الكرسى: «قومى يا بليدة» ولم يكن يطيق أن يرى خادمة جالسة. وفى هذا العهد كانت مارى دى لادوس تظل تخدم واقفة حتى فى وجبات أكلها، على أصبع رجلها الكبرى؛ وما كان لها حق الجلوس على الكرسى إلا فى أثناء السهرة، وعلى شرط أن تغزل؛ فكل من سبقها من الخادمات كن يغزلن لسادتهن المفارش المصنوعة من الخيوط الغلاظ. والتى تكسو الآن الجسد الذى لم يعد يتألم.

تناولت السيدة كازيناف العشاء بمفردها وهى ترهف السمع، من حين لآخر، لعل درجات السلم تفرقع تحت أقدام الولد المتعب الطليح. وخيل إليها أنها تسمعه بعد أن تركت المائدة، فأخذت تصطنع وجهاً غير مكترث:

إلا أنه كان صوت القطار السريع فى الساعة الثامنة يفتح باب المخزن ، فقالت فى نفسها :

— سيخذل فى مساء غد .

وألقت رداء على كتفيها ونزلت إلى الحديقة . وكانت الريح الشرقية تقذف إلى الحديقة دخان المحطة ورائحة الزيزفون والزنبق الغالبة على رائحة الفحم . وقبعت الطير فى الشجر . وشخصت العجوز إلى نافذة غرفة ماتيلد وقد انسكب من شيشها ضوء حزين ، وقالت بصوت خافت : « غداً ستبلين يافاجرة . » وأفزعت البلبل وهو قريب من شجرة المانوليا . وسكتت الصراصير فى أثناء مرورها على طول المراعى المتربة . وتخيلت ابنها مرتجفاً فى مستهل النهار حيال جثة البارحة ، له منظر غريب ؛ فانها تعرف أنه يرهب الموت ويخشاه .

٦

حقاً كان منظره غريباً ! كان يحملق فى ماتيلد وهو ملتف فى ردائه القاتم ، وقفاه معتمد على مسند الكرسى وعلى المائدة الصغيرة كوب من نبيذ الأرمنياك أفرغه ثم ملأه . وفراشات الليل يتطايرن حول شمعتين ، ويقرعن ظليهما فى السقف . نطق مرة باسم ماتيلد ولو سمعته أمه ما كانت لتتعرف عليه ، وقام فاقترب من السرير وأبعد ذبابة وقفت على وجهها ، وتأمل هذا الجمال الأبدى ، وردد فى نفسه : يالك من أعمى ! يالك من أعمى ! . . . ولم يدرك

أنه حقيقة يرى هذا الوجه للمرة الأولى ؛ لأن الموت قد محا كل ذبول عليه : لم يبق شيء من تلك الملامح الجائحة الجافة للبنت البائسة التي كانت دائما تحاسب وتحتقر وتسخر. لم يبق شيء من هذه الضحية التي صاحت وتحدت . لم يبق شيء من هذا الوجه المعوز المطارَد . فلو أن ماتيلد كانت سعيدة معبودة أثناء حياتها لكان لها — وهي على قيد الحياة — هذا الوجه البادي المغمور بالسكينة والسلام . هذا الوجه الذي تخلص من أعباء الحياة « أعمى . . . أعمى . . . » أصغى فرنان وهو ثمل قليلا من الخمر إلى آلامه وهي تنبع من نفسه . واستقبل وهو منتش هذا الشعور المجهول ، فإذا به نهر يتخلص من ثلج الشتاء الذي تجاوز حده ، انتظر خمسين عاماً لكي يتألم من جراء شخص آخر . وإن كل ما يكتشفه الناس عادة في سن شبابهم قد توصل هو إلى معرفته في هذا المساء ! سحر قاتل يقيّده

بهذه الجثة . واقترب مرة أخرى ولمس بأصبعه هذا الخد وظل وقتاً طويلا بعد أن ردّ أصبعه ، محتفظاً بتأثير بارد لاحد له .

لم يعرف ماذا انمحى من هذا الوجه — لحظة رهيبة حين بدأ يدرك أن الميتة « تتغير . . . » خرج فرنان وانحنى على السلم وكان الليل يضيئه ، وسمع القطار الذى سمعته ماتيلد بالأمس ساعة احتضارها ، وارتجف المنزل كما ارتجف فى أثناء أرقها الذى شعرت فيه بخوف شديد ؛ وتذكر فرنان أنه كان وعدها بتركيب ضلف لنوافذ الدور الأرضى ، فاستعاد ذلك فى ذهنه فأحس بطمأنينة حين ذكر أنه قد أبدى لها شيئا من اللطف فى فترة حملها . وعاد إلى الغرفة . هل كان يتصور هذه الرائحة أم كانت تنبعث حقاً من هذا الشىء الذى كان ينفر منه ، ولا يطيق أن يذكره والذى بدت المفارش ملتصقة به ؟ وفتح النافذة ودفع الضِلف ،

ولم يكن ممن تعودوا أن ينفروا من النوم ويتطلعوا إلى النجوم . وإذا به يحس أنه داهم معجزة حيال صعود العوالم الصامته ، وأنه يجرؤ على اكتشاف سر . فإن القلق الذى كان يدفعه من قبل إلى قص عبارات الحكم قد ازداد فى نفسه الآن ، فظل واقفاً بين النافذة والسرير ، وبين هذه العوالم الصامتة ، والجسد الميت . فيا رحمة الله على هذا الحى البائس !

ظل بجانب النافذة لا يجرؤ على الاقتراب من الجثة ورشف ريح الليل المعطر فأوحت إليه رائحة العشب والظلام المدوّى ، صورة من السعادة كان من الممكن أن يتذوقها ، ولكنها ستظل مجهولة إلى الأبد . فانقبضت يده : إنه لا يرضى أن تموت ماتيلد ولو دخلت عليه أمه لصاح بها : « لا أريد أن تموت ماتيلد ! » وقد يقول ذلك

فى نغمة الطفل أيام أن كان يطلب إلى أمه وهو مريض أن ينام الناس جميعا ، أو أن يُفك له مسامير أحد الخيول الخشب فى يوم العيد ، أو أن تقدم له قطعة من الفراولة فى شهر ديسمبر ، أو أن يتركوه يلعب ببندقية حقيقية تقتل وتصيب . وعندما تذكر إحدى الحكم التى كان يقصها ، وهى تتعلق بأبدية الروح ، ارتفع كتفاه : روح ماتيلد ! وكم كان يسخر من روحها ! ما اشد حماقة من يعزى نفسه بذلك ! إنه يطلب أن يعيدوا جسدها إليه حيا ، يريد أن يرى السرور يشرق على وجهها وهى حية . وكم كان وجها خائفا حذرا ! إنه لا يستطيع أن يهرب من نفسه حتى فى اللذة . فقد فهم آخر الأمر أن الجسد يبحث بذاته عن اللذة المدفونة ، فيكتشفها خارجة عنه ممزوجة بجسد آخر نسعى فى إسعاده . أحس فرنان بأظفاره على جبهته ، وصاح طائر ليلى قريب من المنزل ، فتقهقر فرنان وقلبه ينبض

قائلا : « لعله الطائر الخرافى الذى لا يهبط على المنازل التى مر بها الموت ولكن على المنازل التى يقرب منها الموت وحلّ منتصف الليل ولم يمر قطار حتى الخامسة ، ولم تهب نسمة تهز الأوراق الخاملة ، ولم يتصاعد من الحقول إلا تمتمة نائمة لأحلام النبات . اقترب فرنان من الدولاب ثم ابتعد إذ رأى فى المرآة رأسه المخيف ، كأن فى الدولاب رائحة منتنة تنبعث من ماتيلد الراقدة على بعد ثلاثة أمتار من هذا المكان . وتكرر هذا الصياح الليلى وكان قريبا جدا كأنه فى الغرفة ، وقد اضطر الطائر أن يرتمى على المدخنة أو ربما فى داخلها ! ونظر فرنان إلى لوحة الحديد السوداء : لقد سمع فيها دفيف الأجنحة المشئومة ! وتراجع نحو الباب ، ونوى الرجوع إلى أمه مستخذيا . كانت العجوز جالسة على سريرها فى الجناح الآخر ، لا تطاوع نفسها فى الإسراع لمساعدة ابنها

الجاحد . فقد سمعت دفيف الطائر ، وقالت فى نفسها فرحة : « إننى أعرفه ولن يتأخر بعد » .

وبينما يندفع فرنان إلى فسحة السلم ، اقترب بصيص من الضوء لم يلبث أن أضاء السلم ، وظهرت مارى دى لادوس بمصباحها مرتدية ملابس يوم الأحد ورأسها متلفع بملحفة سوداء يخرج منها شحمتا أذنيها الطويلتان . وظنت أن سيدها يريد أن ينام . وأخذ منها المصباح ونزل مسرعاً فانطفأ فى المعبر . وبلغ غرفته وخلع ملابسه وتحسس ثياب النوم ، واستلقى على فراشه فى الوقت الذى كانت أمه تطفئ شمعتها . وتخلت عن تقبيله ؛ إذ سمعته خاف الحائط يغط فى نومه . وهنالك لم تكن مارى دى لادوس معتمدة على مسند الكرسى . بل جلست وجذعها منتصب ، ورسمت على الحائط ظلا غريباً : فمها الأدرد سريع الحركة ، وخرزات سبحتها فى جفوة ميدعتها تشبه حبات الذرة والشعير .

٧

لبست فياستيه كازيناف نقابها ، ذات صباح متقد ، ونزلت إلى طريق الباب الشرق الممتد على خط سكة حديد «بوردو — ست» ومشت وصدرها يتأطر إلى وراء ويداها على بطنها ، وذيل جلبابها يلم التراب والأقذار ، وظلت تسير فترة فى الطريق الفسيحة ، ثم اتجهت يميناً نحو المدافن ولم تلج عتبة الموتى ، ولكنها قرعت بسبّابتها باب الحارس الزجاجى ، فإذا بصوت رجل عبوس ، لايتوقع منها نفحة يصيح فى وجهها قبل أن تسأله عن السيد كازيناف : أنه لم

يحضر منذ ستة أيام تقريباً . فعادت منهوكة القوة ولكنها مطمئنة إذ أحست بأنها اكتسبت شيئاً من النجاح فى صراعها ضد الراحلة : ذلك أن فرنان ، فى أحد أيام الأسبوع التالى لتشييع الجنازة ، ذهب إلى قبر زوجته فى سقم الهذيان ودلائل الألم مما أذهل أهل البلدة جميعاً ، وكان لا يمضى عليه صباح حتى يحضر إلى زوجته حاملا طاقة غشيمة ذات أفرع قصيرة كالتى يقطفها الأطفال . وها هو ذا قد أصبح متعباً طريح الفراش ! وقالت فيلستيه فى نفسها : « هذه هى البداية » وإنما كانت ترضى بتعبه مضطرة لحاجتها إلى الطمأنينة . وكم كان هذا يتعبها ويقض مضجعها ! إنها امرأة واقعية قد فشلت أسلحتها المعتادة فى مقاومة شبح من الأشباح . ولما لم تكن تجيد النزاع الا على اللحم الحى فقد حيّرها أسلوب الميتة : تلك الكامنة فى فرنان ، التى تحتله كالحض . وتوقعت فيلستيه

بغض ابنها لها ، وسخطه عليها ، وأيقنت أن ميله المتواصل إلى إيلامها سيزداد أضعافاً مضاعفة . لقد كان وهو طفل يضرب كرسى أمه برجليه حتى تصيح به أن يتلطف ، ولكنه الآن لا يعاكسها بشىء من ذلك ، ولكن بعدم اكتراثه والتهرب العقلى منها ، فكان يفسد ألاعينيها ويمنع كل مناورة من جانبها . وعند ما رجعت وفتحت الباب الشرقى أحست بأنها متعبة تتصبب عرقاً تحت نير آلامها . ودخلت فى رائحة غصون بالية . من شجر البقس الذى كان يحيط بآلة إصعاد الماء ، حيث تنـام الأتان جريزيت وهى واقفـة على مسلك من مسالك الأشجار ، ووخزت فيلستيه بمظلتها جلد الحيوان البالى فرمح ، ثم تحرك وفى هذه اللحظة خطر لها هاجس : « إنه ما كان ليذهب ، فيستعيد أحلامه فى المدافن أو فى الريف إذ أنه دائب الفكر فى المرأة الأخرى . . . » ففى هذا الصباح ، خرج

كعادته ، كل صباح ، معوّج الكتف ، لابساً قبعة مصبوغة من قش عتيق لازمته ثلاث سنوات ، وسترة من وبر القرمل القوى الرائحة . فكان إذا حل الظهر واضطر إلى العودة إلى منزله جاس حيال والدته وعلى بعد منها . وأصبح لايتأثر بشيء بعدالآن . فلم يعد يعارض مايسمعه منها من محادثات كانت تثير غضبه .

أطلت الملكة العجوز ، وقد هلك عنها سلطانها ، من فوق المنصة القريبة من نافذة المكتب حيث كانت تراقب حضور ولدها . فلم تغادر ببصرها الباب الصغير وقد تركت شغل إبرتها ملقى على بطنها . ونبهها القطار السريع فى الساعة الحادية عشرة أن فرنان قد قربت عودته . وما كان توقعها عودة الحبيب فى كل مرة ، إلا محاولة لإقناع نفسها بأنه سيضع حداً لهذا الانجذاب القاتل . ورددت الأم فى نفسها : « سيعود إلىّ فلن يتغير المرء

بعد الخمسين . . . » ولم تدر أنه لم يطرأ عليه تغيير ما ؛ فإنه لا يزال ذلك الطفل الصغير الرّماح الذى ربّته وتعهدته ؛ إنه لا يريد أن تموت ماتيلد ؛ حتى الموت لم يعرقل أوامره الصارمة !

نزلت من المنصة ولا يزال ابنها متأخراً ، وظلت تذرع الغرفة وهى تردد مائة مرة : « هيا بنا ، لنفكر : لقد صعدت ، وقرعت بابها وسألتها عما إذا كانت متعبة فأجابت بأنها ليست فى حاجة إلى شىء . . . نعم ولكن عند عودتك إلى غرفتك بحثت عن معنى الالتهاب فى قاموس الطب . . . » وبينما هى غارقة فى تفكيرها إذ فوجئت بوقع أقدام فرنان فى الدهليز ، وسمعته يسأل مارى دى لادوس : « هل أعدت المائدة ؟ » ولما كان باقيا ربع ساعة على الغداء ، خرج إلى الحديقة فلمحته فيلستيه من ووراء ستار وهو واقف فى وسط الممر . إلام ينظر

ياترى ؟ لم تشك الأم أنه كان يتطلع إلى غرفة شارع هجورى حيث كان ينتظره « مزاجه » يوماً من كل شهر ، وحيث كانت المناشف المخملة تجفف على حبل ممتد فى الشباك . وكانت « مزاجه » تسميه البخيل الهرم ؛ لأنها لم تفلح يوماً فى أن تنتزع مليما زائداً عن الثمن المحدد ، وكذلك كانت قصة فرنان كازيناف فى الحب . خطر له ، وهو يرفع بصره إلى نوافذ غرفة ماتيلد : « وعلى كل فقد استطاعت فى خلال حملها أن تلمس منى عطفاً وحباً ، كنت أقف فى صفها ضد أمى ، غير أنها اعتقدت أننى فعلت ذلك لأجل طفل . . . » أخذ يستعيد — دون جدوى — كل الظروف التى أبدى فيها عطفا نحوها . وإنه ليذكر فى سفره الأخير ، يوم أن قام إلى بوردو مع ماتيلد : وما كان أشد انفعالها من جراء ما أنفقته فى شراء لفائف الطفل ! فقد صاح بها قائلا : « لم تكن الأمهات فى

زمنى يشترين شيئاً ما ، وإنما كن يعددن من الشرف أن يحكن كل شيء بأيديهن ! » فدلفت ماتيلد وراءه صامتة حزينة، ودخلا فى مطعم خير مما كان يقودها إليه من قبل: الورد يزين المائدة وماتيلد تبسط منشفتها باسمة سعيدة . ويسأل فرنان الخادم : « هل الثمن محدد ؟ » فيجيبه : « لا ياسيدى إنه حسب الطلب » فإذا به ، بعد أن يلقى نظرة غاضبة على كثبت الطعام ، ينتفض قائما ويذهب إلى محل الملابس ليرتدى معطفه ، وينصرفان فيمران أمام المطعم والزبائن يتهامسون عليهما والخدم يسخرون منهما ، ويتخذان طريق الرصيف ، وفرنان يتجاهل رؤيتها تبكى .

وعاد فرنان ونهضت السيدة كازيناف على ساقيها الثقيلتين ، فلحقت به فى الدهليز قائلة له :

— ما أشد إحساسك بشدة الحر أيها العابث المسكين !

وهمت بمسح وجهه المتصبب ، عرقاً فأدار وجهه فقالت له :

— جسمك يتصبب عرقاً ، فاذهب لتغير ملابسك . وإلا مرضت .

فلم يجبها ، فأردفت قائلة :

— وقد أعددت لك الملابس على سريرك .

وتبعته إلى مكتبه وهى تقول له غاضبة :

— فإن مرضت ، فمن غيرى يعالجك أو يعنى بك .

وأخيراً حدجها بنظرة قائلا :

— لم يبق إلا أن تتركينى أموت كذلك .

فأفزعتها هذه الضربة فلم تحر جوابا . واخترقا المطبخ دون أن يكشفا أغطية القدور — كما كان يفعلان من قبل — ودخلا فى غرفة الطعام المظلمة ذات الرائحة الفائحة وقالت له :

— لم تأكل.

ورددت الكلمة فى أسف مرير : « لم تأكل » ومن دأب سكان المناطق الساحلية أن يفهموا هذه الكلمة على أنها نذير بالمرض والموت . ففاقد الشهية عندهم فاقد لأثمن شيء فى الوجود . فما عليه حينئذ إلا أن ينتظر النهاية .

وهنا قالت مارى دى لادوس :

— وسيدتى أيضاً فاقدة الشهية .

ولم يكن ذلك تصنعاً منها كما كانت تفعل من قبل ، حين كانت ماتيلد تدير المنزل . فكانت هى وابنها متفقين على التظاهر بالتقزز من كل صنف من ألوان الطعام حتى يجبراها على التخلى عن إدارة المنزل .

ووجدت فيلستيه نفسها وحيدة فى غرفة المكتب لم يلحق بها ولدها ، وحان وقت القهوة وقد تعودت أن تشربها إلى جانبه على الأريكة ذات الجلد الأسود ،

مسندة رأسها إلى كتفه يقرآن الجريدة ويتضاحكان كما يصنع الطلبة . فاذا ما فتحت زوجته الباب انفصلا فجأة وتعمدا التظاهر بأنهما يقطعان حديثاً كان يجرى بينهما . ولاتنسى فيلستيه ما كانت تسألهما العدوة بنغمة مدرسة حانقة : « هل أزعجتكم ؟ » — « لا لا لقد قلنا كل مانريد قوله . »

هذه مناوشات كانت تستعيدها السيدة ، فتبعث فيها السرور والحياة . ولكن أين يختبىء المحبوب الآن ؟ ذهب ليستلقى على فراشه ؛ لأنه خائر القوى ، فلم يعد قلبه وصدره يحتملان القيام بهذه المتاعب والانتقالات . . . ما أشد رغبتها فى أن تسرع للحاق به ! ولكن ما قيمة ذلك ؟ فهو الآن يغلق بالمزلاج كما كان يفعل مع ماتيلد من قبل .

نفذ شعاع من الشباك الموروب ، فتألق على رف المدخنة

إطار الصورة التى تحبها فيلستيه ، تلك الصورة التى التقطت بعد شهر من الزواج يوم أن جلست الأم وولدها وكنّتها أمام مصور جوّال . وحدث قبل التقاط الصورة بثانيتين أن هجر فرنان زوجته وانحاز إلى جانب أمه . وأودعت الصورة فى سجل الصور . وفيها وقفت فيلستيه وابنها فى مكان ظاهر ، بينما وقفت الزوجة الفتاة من الخلف مرخاة اليدين باسمة الثغر .

هـذه ذكرى سعيدة كانت تدفع السيدة كازيناف إلى التأمل فيها من حين لآخر . ولـكنها اقتربت فى هذه المرة فوجدت الإطار خالياً ، فأصابها الذعر وأبصرت على المائدة المقص وسلة الورق . . . يالله ! أحقاً تحمل السلة ابتسامتها وبطنها وأنفها الشامخ ؟ انثنت تبصر صورتها بين الأقذار . ياله من شقى ! لقد فصل عنها صورة ماتيلد ولا شك أنه يحملها الآن على قلبه ، فى حافظة نقوده ،

ولا شك أنه يجعل لذته فى عزلته أن يقرب الصورة من شفتيه الحارتين . لقد تحملت العجوز ما تحملت فى الأسبوعين الفائتين ، أما الآن فهى قلقة فزعة من هذا الدليل الملموس ، دليل الجحود والعقوق . فحطم الغضب الجنونى فى نفسها كل عقبة ، وارتجفت أصابعها القبيحة وضربت الأرض بقدميها كما فعلت يوم أن صاحت فى وجه ماتيلد : « لن تمتلكى ولدى ! لن يكون لك أبداً ! » واتجهت إلى الباب ، وقد أشبه وجهها الغبى المتحجر وجه المرأة التى تخفى تحت معطفها مسدساً محشواً أو وعاء من الزاج . لعله لا يوجد فى الحياة أنواع كثيرة من الحب ، ربما لا يوجد إلا نوع واحد من الحب ، فقد كانت هذه المرأة فى النزع الأخير من جراء فشلها فى أن تسيطر على ابنها هذه السيطرة الروحية التى تمكنت من نفسها فأصبحت أشد عنفاً من الرغبة التى تجعل جسمين شابين يتمازجان فيتفانيان .

دفعت الأم ضلف النافذة وهى تتمزق من الغيظ . كانت شمس الظهيرة ثقيلة على الحديقة اليابسة ، ورمال الممرات تتخلل الأعشاب المتربة . وزفر القطار فى بدء قيامه فذكّر بصدر مهموم . وأدركت العجوز السلم وهى تتلوى غضباً ، وأخذت أنفاسها تضعف شيئاً فشيئاً ، حتى بلغت غرفة الابن العقوق فوجدتها خالية ، ووجدت فى كل مكان من الغرفة زجاجات تنبعث منها رائحة البول ، وشعرت بالخوف عنـد ما رأت لون خديها فى المرآة بنفسجياً . فأين تجد هذا الغادر إلا فى غرفة العدوة ؟ ونزلت ، وركبتاها السقيمتان تنثنيان تحت ثقلها ، وسارت فى الممشى وعبرت الدهليز المظلم ، ولم يبق إلا ممشى واحداً ، ثم السلم المؤدى إلى غرفة الميتة القاهرة . ظلت الأم خائرة القوى بضع ثوان ، ووقفت جامدة حيال الباب ، كما فعلت ليلة الاحتضار وأصغت ، ولـكن الله لم

يدر حينئذ ماحدث فى تلك الليلة على وجه العجوز المصفى فلم يعبر وجهها عن الدهشة والأمل ثم لم يتهلل بفرح جنونى ، وأرهفت السمع فإذا غطيط خفيف ، يتبعه شىء يشبه الزحير أو الصوت المخنوق ؛ وعرفت هذا الصوت جيداً ، فكم كان موسيقى لياليها الحلوة التى كانت تسهر عليها وتلتذ سماعها ، من وراء الحائط ، وتستدل بها على وجود معبودها . فكانت حينئذ تسهر مضيقة إلى هذا النفس حتى أنه لم يكن لديها ما هو ألذ من هذا الأرق . أما اليوم فقد سرقت الميتة منها نومة ولدها العزيز ، وهنا ، عادت موجة من الغضب تثيرها ، وأظلمت الدنيا فى عينيها ، واندفعت تفتح باب الغرفة .

واضطرت فيلستيه أن تغمض ، عينيها فقد كانت النافذتان العريضتان مفتوحتين فتركتا لهيب شهر يونيو الغائل يتسرب إلى الغرفة ، وفاحت رائحة الزنبق النابت

فى قوصرتين على المائدة الصغيرة فى الغرفة ، كما لو كانت الغرفة مغلقة . وبين هاتين القوصرتين صورة ماتيلد مقصوصة فى عناية ، ومحاطة بإطار مصدّف أوسع منها . ووضع أمام الإطار ، بنظام ، ما كان قدمه للخطوبة : فص صغير من الماس وخاتم وقفاز أبيض بالى . وبأسفل هذه البقايا جلس فرنان خائر القوى على الكرسى ، ورأسه يترنح ، وقد أخذه النوم من عنقه . وما زال زنبور يتخبط بالسقف والمرآة حتى اكتشف نافذة مفتوحة فتلاشى طنينه فى حريق السماء .

ودب حذاء فيلستيه على أرض الغرفة ، وغيّر فرنان وضعه ، ووقفت ، ثم خطت خطوة نحو المائدة الصغيرة فرسمت وهى تمد يديها حركة پوليوكت محطم الأصنام ؛ فقد ارادت أن تبصق على الصورة ، وتمزقها وتطأها بقدميها

ولكنها لم تجرؤ . وسقط رأس فرنان على ذراعه الملقى على المائده ، فلم تر أمه من وجهه إلا كرة كبيرة مرشوقة بأشواك من الشعر الرمادى . وأحست بالبرد على وجهها المبلل بالعرق ، وزاغ بصرها وطن الدم فى أذنيها ، فكأنها تسمع دوى البحر من خلال صدفة كبيرة . وأرادت أن تتكلم فلم يطاوعها لسانها ، وما كانت تدرى هل ما تسمعه ناشئ عن صوت صراصير أوطنين ذباب أوغليان شريانها . وإذا بيد خفية تدفعها إلى السرير وتلقى ، بها على الفراش الذى كانت ماتيلد تتألم عليه حتى قضيت نحبها : واستلقت كالوحش ، وانتظرت ، ثم حملقت مشدوهة : فقدم بها الطائر المشئوم من بُعد ، فزفرت زفرة ، وابنها يغط فى نومه ، فيحدث صوتاً من حلق مزدحم ، والخطر الداهم يدعها مرتجفة تتصبب عرقاً . وألقت إلى الهيكل المقدس الذى يتبتل فيه هذا الشيخ الفانى نظرة قل فيها الحقد وعظمت الرهبة .

٨

لما حلت وجبة المساء لم يلمح فرنان أثراً لجو الخصومة العادى وأدهشه مظهر أمه : فإنه تعود أن يراها شامخة الصدر ، منصوبة القامة ، فى مظهر الجلال والعظمة ، فإذا بها الآن ذابلة كسيرة ، ذات خدين مسترخيين رماديين ، ومع ذلك فلم يحس بشفقة عليها ، بل شعر بملل بسبب الضربة التى كان يعد نفسه لتصويبها إليها . وكان يخشى أن تتلقى هذه الضربة بالصياح والعويل ، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، فقد تلقتها ببرود لم يكن يتوقعه .

فما رأته فى ذلك اليوم قد نبهها إلى هذه الضربة ، فلم تعبأ بحضور مارى دى لادوس ، تطلب منها ملاءتين لإعداد سرير سيدها فى غرفة السيدة المسكينة . فأعطت مفتاح الصيوان للخادمة وأخذت شمعتها ، وقدر فرنان أنها ستتحداه فى صمت . لا فلم تعد تتشدد فى شىء ، فلم تأخذها دهشة ما ، ولم تحرك ساكناً حين رأته يمر فى طريقه إلى غرفة العدوة بأمتعته وأسلحته ؛ ذلك أنها ايقنت بالخيانة فى قلب ابنها .

وما إن انسحبت إلى غرفتها حتى وجدت سكوتاً غير مألوف قد بث فيها الرعب ، فخيل إليها أنها تسمع ارتجاف المنزل للمرة الأولى ، وتذكرت أن زوجها قد بناه أمام محطة سكة الحديد بحكم طبيعة عمله فى تجارة الأخشاب المستوردة من الشمال ومن المدينة . فلما أصبحت أرملة ، كان غطيط ابنها فى نومه سلوتها فى الحياة وحائلا بينها وبين

أخطار الظلام . وما كان وقع الخطوات الخافتة ، ولا هدير الجسر الحديدى فوق النهر ، ولا الأنين المدوى حين يعتدل الليل والنهار ، ولا شدو البلبل بين أشجار السوسن — بالذى يفوق هذه الأنفاس الراقدة . وقد اكتسب فرنان ، مما أمضاه من ساعات معدودة ، قريباً من ماتيلد ، روحاً جديدة وأضاف قيمة إلى وجوده . والآن فى هذا المساء أحست بأنها غريبة بين جدران منزلها التى تضمها منذ حوالى خمسين عاماً ! ومر قطار قبل قطار آخر الليل فهز زجاج النوافذ ، ثم عبرت قاطرات البضاعة متتابعة لا تحدث صفيراً ، وإنما يختلط هديرها بأحلام النائمين ، أما المرأة العجوز فقد ظلت تقاسى النوم فى المضيق الذى بين السرير والحائط ، ملصقة شفتيها بالجدار ، ومن ورائه ولدها مستلقياً على فراشه ، لم يغط فى نومه بعد . « استديرى على الجانب الآخر وأغمضى عينيك ،

واجعلى الفضاء بين جنبيك . . . » وفجأة انتفضت قائلة :

— إن شخصاً يمشى فى الحديقة .

لا أحد . . . فقد هزت الريح أوراق الشجر هزاً رفيقاً فأوهم أنه صوت أقدام ، لهذا أشعلت فيلستيه ثقاباً وعادت لا تسمع شيئاً ، فأطفأته ، ولكنها تصورت أن المنزل الفسيح لا يحميه شىء فى وسط الظلام الدامس ؛ فشرفاته خالية من الشيش . وخُيل إليها أن وجهاً ما كراً ينظر من زجاج النافذة لاصقاً به ، وأن يداً تشقه بماسة صامتة . وكيف تنال موافقة فرنان على وضع الشيش ، وهى التى رفضت أن يسمح بوضعه عناداً فى ماتيلد ؟ خير سبيل أن تذكره بأمنية الراحلة ، فذلك أدعى إلى قضاء الحاجة وتحقيقها وأحست فيلستيه أن ما كانت تحس به من ضيق فى هذه الليلة إنما هو لون من ألوان العذاب التى كانت تتجرعها الفتاة فى كل يوم ، فيالها من صدفة واتفاق !

وهزت العجوز كتفيها ، وزجرت نفسها ، واستعادت حوادث الخادمات منذ القدم من أعماق ذاكرتها ، وطغت على طفولتها الخائفة . لا ! لا ! فإن الموتى لا ينتقمون . وها هى ذى ماتيلد تزداد عفنا فى كل لحظة فى مقبرتها الثالثة على اليسار ، المجاورة للحائط الخلفى ، إلا أن فيلستيه كانت تسائل شبح الموت بعينيها كأنها قد اهتدت أخيراً إلى عالم مجهول زاخر بالأرواح بعيد عن المظاهر . وعاودتها واقعيتها فاغتصبت ضحكة ، فما هى مؤمنة إلا بما تلمسه : فقد كانت ولادتها فى زمن لم تتصل فيه بلاد اللاند بباقى العالم إلا بطرق رملية . وحدث أن طرد عصر الإرهاب القساوسة من هذه البلاد ، وتناولت أم فيلستيه قربانها المقدس الأول يوم زواجها . وكان أطفال هذه البلاد ، حتى مستهل القرن الأخير ، لا يعبدون إلا الشمس القاسية ، ولا يعرفون إلا القوة الخارقة لنار الإله « پنياداس » —

ذلك الإله السريع الذى يعدو فلا يدركه أحد تاركا خلفه عدداً عظيما من المشاعل .

تأخرت قليلا فى نومها إذ أنها لم تظفر بالنوم إلا عند الفجر . ونزلت فرأت على الصندوق الخشبى عصا فرنان وقبعته ، فلماذا لم يخرج ؟ أكدت لها مارى دى لادوس أنه لا يزال نائماً . وشخصت السيدة إلى النوافذ فرأتها مغلقة ، فثبت بصرها عليها وهى متألمة كما لو كانت الراحلة حية تضم فرنان بين ذراعيها . وهمست قائلة : « أنا مجنونة » ، فما كانت الأم تحس بمثل هذا الشعور يوم أن كانت ماتيلد على قيد الحياة . ورددت فى نفسها : « أنت تعرفين جيداً أنها ليست هنا ... » هى ليست هنا ولكن ذلك لم يمكنها من أن تستأثر فى فراشها بالشخص الذى هرب منها وهى على قيد الحياة . ولم تذكر فيلستيه أنها تألمت يوماً ما بمثل هذه

الحالة المريرة اليائسة ، حتى فى اليوم التالى من الزواج ، كانت تحس بأنها مؤمنة بانتصارها . فقد حدث بعد أسبوع من زواجهما وكانا يتنزهان فى بيارتس أن أرسل إليها خطاباً أثلج صدرها وملأها غبطة حتى إنها أعادت قراءته مرات كثيرة ، فحفظت منه أجمل عباراته : « ... أنت على حق ؛ فالأم وحدها هى التى تستطيع أن تفهم أى نوع من الرجال أنا ، وكل النساء الأخر غريبات عن نفسى ، يعتقدن أنهن يحببننا ولا يفكرن إلا فى أنفسهن ، فلذاتهن أولا ثم سلامتنا . ويجدن من الصواب أن ننفق بغير حساب فى سبيل أحلام سخيفة . وأكثرهن إلحاحاً هن اللائى كن يمتن جوعاً قبل الزواج . هل تذكرين هذا الفندق القريب من محطة سكة حديد بايون الذى لم يكن فخما جداً ولكنه صادف هوى فى نفوسنا ؟ لم ترض ماتيلد أن تقيم فيه ؛ لأنها ادّعت أنها رأت فيه بقة

ميتة ، وأن الدلو كان كريه الرائحة ؛ فاضطررت إلى الإقامة في إحدى الفنادق البغيضة لدىّ ، فهنـاك جم غفير من الخدم لا يحبون أن يقضوا خدمة دون نفحة ، ويهزون أكتافهم مهما أخذوا من النفحات ولو كان عشرين سنتيما ! وحسبتني ماتيلد بخيلا . وهي امرأة لا تتحدث إلا عن نفسها فلا تعنى بأى شيء يتعلق بى ، وأنا الذى كنت أشتكى من العناية الفائقة التى كنت ترمقينني بها ! أؤكد لك أنها تسخر من حالتى الصحية ، ولم يكن لها يد فى صحتى وعدم إصابتى بمرض ، فهى تحدث فى عربات القطار تيارات هواء قاتلة ، وهى تصحو فى الليل أثناء نومى لتفتح النافذة . ولا داعى للقول إن آلام كتفى قد تنبهت . إنها دائبة على السخرية ، تنتقد عادات أسرتنا وتزعم أن عدم الاغتسال فى المساء شيء قذر — وهى لاتدرى أن الاغتسال لا يوازى تعبه ، ما دام سيعاد فى الصباح التالى . هذا قليـل من

كثير أتحمله ولا أستطيع أن أعترف لك به . لا تخافى شيئاً يا أماه ، فابنك يؤدى واجبه حتى النهاية . »

وفى صباح يوم قائظ ، يحكى أيام هـذا الصيف ، وصل هذا الخطاب ليغمر الأم ، هذه الدئبة الهرمة ، بالقلق والسعادة . يا لها من ذكرى جميـلة ، ذكرى الأسابيع التاليـة لذلك ! لاحظت ألف إشارة تدل على انفصـال يزيد يوماً بعد يوم . وحدث أن قال فرنان لأمه ، فى اليوم التالى لليلة لا تزال أسرارها غامضة ، وهو شاحب اللون : « ستنصبين سريرى فى غرفتى القديمة . . . » كانت تتوقع هذه الفرحة وإن لم تكن بهذه السرعة . وأصبحت ترى نفسها فى غرفة مُهَوّاة جالسةً على رأس سرير طفـل ضيق . وقد فرشت مارى دى لادوس عليـه الملاآت ذات رائحة النعناع والماء الجارى . أما اليوم . . . فوا أسفاه ! لقد

بدّدت الشمس الضباب ، وخلت الحديقة من العصافير اللهم إلا من صرصور . وانصفقت ضلفة النافذة وكانت تغلقها مارى دى لادوس . وهبت ريح الجنوب الملتهبة وهى تحمل رائحة الصنوبر المحرق ، ولم يبق مناص من أن تحمرّ السماء وتكفهر بالدخان فى منطقة اللاند . وباتت الأرض المعذبة ، من لحظة إلى أخرى ، تزداد عطشاً ، والكلب بليو يفحص بقدميه وأنفه ليحفر حفرة يبترد فيها . وسمعت فيلستيه طنين دمها فى أذنيها كما حدث لها فى اليوم السابق ، وتوالت ضرباته ، وهى ساكنة ، فربما كانت حركة منها إشارة إلى الموت . وهمهمت كالمجنونة بكلمات ، فرفع بليو أذنيه وظن أنها تحادثه وتصورت أن جسد ابنها ملقى على الفراش الذى كانت عليه جثة ماتيلد فانتفضت فزعة ، ودلفت إلى السلم الملتهب محاطة برائحة زهرة الغرانيون وأصوات الضباب العاوية . فلما وصلت إلى

الدرجة الأولى من السلم دُفعت الشرفة، وظهر فرنان كازيناف يقول لها :

— المائدة اعدت يا أماه .

كان لا يزال على قيد الحياة واقفاً تحت الشمس المحرقة تخفى وجهه قبعته المنخفضة . فشعرت العجوز، على ثقلها، كم هى خفيفة وهى تصعد إلى المحبوب الجامد الذى لا يتحرك ! إنها فرحة قصيرة : ونظرت إليه وهو جد قريب منها فرفع قبعته لكى يحييها، فكتمت صيحة حين رأت ما أصاب وجهه من تلف . بأية حالة تجذبه إليها الراحلة ! شفتاه أشد بياضاً مما لو كان شرب خلا . بصره مفعم بالدم كعينى كلب مُسنّ . . . ونظر هو أيضاً إلى والدته وهو جالس على المائدة . ولا شك أن كلا منهما فزع من الآخر حين جلسا يتناولان وجبة الغداء وجها لوجه، وظلت لا تغادره نظراتها بينما ثاب هو إلى حالته

ينشد رؤيةً ماثلة فى دخيلة نفسه لا منصرف له عنها .
وصاحت مارى دى لادوس : لقد اشتعلت النار فى جهة لانديراس ولكن ناقوس الكنيسة لم يدق لأنها حدثت فى مكان ناءٍ عن القرية ، — وما كان أى ناقوس بقادر على أن ينزع فرنان من ذكرى ليلته الأولى فى الغرفة التى ماتت فيها ماتيلد .

٩

قضى فى بادئ الأمر فترة من الزمن أحس فيها بحلاوة الراحة ، تحت أجنحة الستائر البيضاء المبهمة المسندة بسهم من الخشب . كانت النوافذ مفتوحة ، والليل يتنفس فيها كما يتنفس الكائن الحى . لا شىء يذكّر الآن بالسهر حول الميتة ولا بهذا الطائر الخرافى . ولكنه أصبح يحس وهو مستلق على ظهره ، وبصره مغاق ، ويداه قابضتان على الملاءة ، ورجلاه ممتدتان كما كانت ما تيلد فى حالة موتها ، أصبح يحس بأنه يتدفق بين لجتين نحو هاوية من

الراحة لا نهاية لها . فهى ماثلة حياله ، لا فى الغرفة ولكن فى قرارة نفسه ، ممتزجة بلحمه ، لحمه اليقظ الذى يذكره بليالى العرس . وتنبه تفكيره شيئاً فشيئا وانحصر فى لحظة من الزمن شعر فيها بجسم ما تيلد الخائف لاصقا به . وبث مارآه فى نفسه الشفقة والسخرية معاً ، فهز رأسه وتنهد بصوت جهير . إنه ، كسائر أسرته ، بل كأكثر الرجال ، لا بد أن يموت دون أن يعرف ماهو الحب . ولقد لعب القدر هذه اللعبة الغريبة بأن أيقظ من هذا الرجل الهرم مسارب دفينة فى أعماق سحيقة ! وها هو ذا الينبوع الملىء بالطين يفسح فيه طريقاً بطيئا . لم يكن يعرف ماهو الحب فقد عاش آباؤه عشاقا غيورين لأشجار الصنوبر والكروم . وأراد أبوه ، نوما كازيناف ، أن توضع على قبره قطعة من الطين الخصب لأرض كان يؤثرها على سائر أملاكه . وعند ما فكر فى أن يخطب امرأة ،

سأل صديقاً له كيف يستغلّها . وكان الزواج يضمن لكل هؤلاء الغابرين استمرار الملكية فضلا عن تنمية الثروة . وقاوموا الموت الذى لا مفر منه بفكرة تخليد الأسرة ، فكان الولد الواحد منهم يكفى دائما لبقاء خيط دقيق من الحياة ، يحمل التركة التى تزيد شيئاً فشيئاً حتى نهاية الوجود بما يفيده الزوج من أموال الزواج والوراثة . ولم تفلح أية عاطفة فى أية لحظة من حياة هذه الأسرة فى أن تصرفهم عن هذا المجرى الهائل الجارف . وكان النساء جميعاً ، سواء أكن من آل پيلوير أم من آل كازيناف من اللاتى يهمسن للزوج : « أسرع » . ومع ذلك فكان لابد من أن تظهر يوما ما على حلقة من السلسلة الحية نقطة من الصدأ ظاهرة تعمل على قرضها ، وتقطع بين ماضيها وحاضرها . فويل لمن يخلف بعد ! يا لها من قلوب شقية لم تولد بعد ! ماذا ترثون منى أيها الأطفال ! فما أقسى

ما أظهره فرنان لأمه من خصومة صامتة ! ومع ذلك فإنها أمه التى ورث عنها شعلة الحياة و نبراس الوجود؛ ولكن فى الوقت نفسه كان للأم غيرة حنون تحول دون تقوية هذه النار المجهولة وتنميتها فى نفسه ؛ جعلته أمه عاجزا حتى لا تفقده ، ولم تكن تسيطر عليه إلا لأنه قد تجرد من كل شئ وربته على أن يحذر من المرأة وأن يزدريها . فقد كان حتى الخامسة عشر من عمره لا يعرف إلا نوعين من المرأة : « إمرأة تكبلك بالأغلال » و « أخرى تسبب لك الأمراض » . غير أن هذه العقبات لم تقف بطبيعة الحال ، فى سبيل شخص يريد الحب ، إلا أننا لا ننسى أن فرنان من ذرية أولئك الفلاحين الذين يشاهدون فى الطرقات ، فى أمسيات أيام السوق ، أذرعهم مسترخية ، وأيديهم خالية ، سائرين كالملوك ، فى منتصف الطريق ، تتبعهم نساؤهم متعبات ، يحملن سلالا ، تنوء بالحمير ، ثم نما

كبرياء فرنان نموا مستمرا فغدا من هؤلاء الشبان الذين يؤمنون إن من الصعب أن يظفر المرء بإعجاب المرأة إلا إذا قدم لها ثمنا ، « وإن من تخضع لهم النساء دون مقابل إنما ينفقون فى سبيلهن أكثر من غيرهم ، أما أنا فإنى أقدم لها الثمن ولا داعى للورد والهدايا والتكاليف الجوفاء . »

غير أنه الآن ، يستلقى فى الدجى على سرير ماتيلد ، ويشاهد نهارا رائعاً يحرق فى ممر الجنوب ويرى ، من وراء شجرات الحناء الطنّانة بأسراب النحل ، هذا الجسد الغض بينها . . . ألا تعتقد ، إن كان لا بد أن تتسلح ضد أمك ، أنك تجرأت على تفريق الغصون وجذب هذه الفريسة الجسدية إلى نفسك وهى تفوح برائحة العسل ؟ حقاً كان جوع التشفى يثيرك قبل كل شئ ؛ ولكن هذا الجوع قد أخفى جوعاً دفيناً ،

وإنك لتهتدى إليه فى الوقت الذى لا يسمح بإشباعه حين تكون فريسة اللحم المعطرة قد ذابت وأصبحت هذا الشئ البشع الذى لم يصبح له اسم ولا رسم . . .

ونهض وطاف فى الغرفة عارى القدمين يتخبط بالأثاث وقال بصوت عال : « إنها كانت تحبنى لأنى كنت أعذبها . . . » وهز رأسه الضخم وزمجر قائلا : « لا . لا ليس هذا بحب . . . » وتقبض وجهه يريد أن يبكى كما كان يصنع فى طفولته . وجمد لحظة وقرض أظفاره وقال : « رجل آخر ؟ آخر ؟ . . . » ولم تأخذه الغيرة حتى فى هذه الساعة ؛ لأن كبرياءه المتناهية كانت تحميه . ماذا ؟ رجل آخر فى حياة ماتيلد ؟ كان على وشك أن يتألم ولكنه تذكر ما كانت تردده أمه مائة مرة : « هى أمينة

لا نستطيع أن ننزع هذه الصفة عنها ، هى لا تملك إلا هذه الصفة ، وتملكها فعلا . . . » وأردفت قائلة وهى تنوه بالسيدة كوستو التى أنجبت ماتيلد : « فى هذه المرة فقط لا يمكن أن يُقال إن الكلب الأمين يُطرد من فصيلته . » فلم يكن يعلم فرنان أن هذه العجوز ، عندما امتدحت كنّتها كانت تشير إلى يوم تناولها الغداء عند بعض نساء أسرة ميرليه عقب العودة من حفلة عرس . وكان يجلس على شمال ماتيلد ملاحظ فى الكلية قيل إنه شاعر . وجلس يُدلى بنصائح إلى إحدى آنسات ميرليه وكانت شاعرة أيضاً . وبدا لفيلستيه كازيناف أن ماتيلد ، فى أثناء تناول الطعام ، تتشرب كلمات هذا الفتى الأسمر الجميل . ولا يعلم إلا الله ماذا كان فى نفس ماتيلد فى ذلك الوقت من تراخ وتهاون أو عنصر خفى أو ميل غير محسوس ، نحو هذا

الرجل الذى أخذ يخفض من صوته حين أنشد بيتا من الشعر فى جلبة الوجبة المنفضّة . وتضاحك بعض سكان اللاند ، فأحالت الضحكات وجوههم . أما الشاعر فلا شك أنه كان يحلم فى هذا الوقت بقصة غرام كالتى يعرفها فى بطون الكتب . . . ولكنه بعد أن قدمت القهوة ، ألحت عليه فيلستيه ، فى غباء ، أن يسمعها قصيدة . فرفض ، فرجته أن يقبل ، على الأقل ، كتابة بعض أبيات فى كناشة كانت كنتها تنقل فيها قطعاً مختارة من الشعر . ومنذ ذلك الوقت تنبهت ماتيلد : فلم تكن تعرف فيلستيه كيف تخفى تدبيرها وكم كانت كنتها تفخر بأنها « تسمع دائما وقع قبقابها الضخم وهى مقبلة من بعيد » . فلم يعد ينال منها الملاحظ لحظة أو التفاتة . ولما حضر لزيارة آل كازيناف ، رفضت ماتيلد أن تنزل إلى غرفة الاستقبال ، مما جعل فرنان ينام نومة هادئة ، فإن الفتاة البائسة

لاتعرف كيف تكسب أرقام النجاح أو تزيح عن نفسها الضربات الموجهة إليها ، ولم تخن زوجها فى سرها وإعلانها .

لم يُطل التفكير فى مثل هذا الأمر ، ونظر ، فرأى حياته أمام بصره صحراء جرداء ، فكيف استطاع أن يعبر هذه الرمال الفسيحة من غير أن يموت عطشا ؟ ولكنه ما كان يحس بمثل هذا العطش فى خلال السنين الغابرة ، وها هو ذا الآن يشعر بالعذاب ، وقد ماتت ماتيلد قبل أن يعرف أنها كانت ظمأى ، ماتت ولكنه لم يمت . وخطر له أن نبعا جاف ، وأن آلافاً من الينابيع المجهولة منبعثة متدفقة ، فما أيسر أن يحل شىء محل ماتيلد . لأول مرة يذوق فرنان طعم الحب ، لهذا فهو ثائر على هذا السراب الذى يغمر بالظلمات الكون بأسره حتى يغمر بالضوء شخصا بمفرده . إنه طفل مجوز فاسد تعود أن

يستغل كل شئ من لذته ، ويستفيد من كل شئ فى حياته ، لهذا ردد فى نفسه أن ماتيلد كانت فرصة سنحت لاكتشافه اللذيذ ، فلماذا لا يستفيد به مع امرأة أخرى . . . ؟ وأية أخرى ؟ واستعرض فى مخيلته تلك المناشف وهى تجف على نافذة تطل على شارع مجورى . . . أية أخرى ؟ ففى عالم دقيق من حياته المنحطة ، فى هذا الشرك المنصوب ، فى هذا النسيج اللزج الذى نصبته أمه من حوله مدة نصف قرن لكى تحميه ، وهو كالذبابة الكبيرة المصيدة ، يتخبط فيها ويتقيد بها،فى هذا كله . أشعل فرنان ثقابا وتأمل نفسه وهو يرفع الشمعة أمام المرآة . حقاً إن العبادة تخلق الصنم . ولعل ماتيلد ، ماتيلد بمفردها هى التى كانت تستطيع أن تتعلق بهذا الإله الهرم المغضوب الذى خلقته أربعون عاماً من عبادة الأم . إذن لقد سبق السيف العذل ! واقترب من النافذة وشم

رائحة الأرض المقهورة ، فعرف أن بعض قطرات من المطر سقطت على الأرض ، فانبطح على أرض الغرفة وثنى ذراعيه تحت وجهه ، وظل كذلك حتى ألجأه التعب المرير إلى الارتماء على السرير . وأخيرا أنقذه النوم وتنبه أول سرب من العصافير فلم يوقظه ، وظل فى نوم عميق كأنه جثة هامدة .

١٠

وفى وجبة الغداء التى تلت هذا المساء ، جلست فيلستيه كازيناف أمام ولدها الشيخ ، وأصبحت ، لأول مرة ، لا تفكر فيه على أنه مِلْك استولت عليه امرأة أخرى ، وهى تجدّ فى رده إليها مهما كلفها الأمر . إلا أن حبها قد بدأ يشبه حب سائر الأمهات ، الذى لا يصر على شىء بدلا من الذى يعطيه . هذه العجوز الصامتة تجبر نفسها على الأكل ، وتعصف فى قلبها العاطفة المنهزمة التى قبلت أخيراً أن تتخلى عن حيازتها

المقدسة : ليكن سعيداً قبل كل شئ ! ولو كان فى يدها السلطان لنادت ماتيلد من شاطىء الموتى ، فإن نشوة التنازل قد كشفت لحبها منظراً فتنها وأعجبها . تلك غريزة الحب الذى لا يريد أن يفنى . عند ما تزول أرضه من تحت قدميه ، وتنهدم سماؤه المألوفة لديه ، فسرعان ما يخترع الحب سماء أخرى وأرضاً أخرى . تلك ساعة يهمس فيها المبغَض للذى لم يعُد يحبه : « لن ترانى بعد ، لن أثقل عليك ، سأعيش فى ظلك ، وسأحوطك بحماية رفيقة لا تحس بها . » هكذا كانت فيلستيه كازيناف عند نشوة انهزامها تلقى إلى عاطفتها النهمة بالتنازل عن هذا اللون من الحب الذى يمدها بالغذاء . وشقت الأم السكون بنغمة توسل قائلة :

— أنت لا تأكل يا عزيزى . يجب أن تأكل .

فأجابها دون أن يرفع رأسه :

— وأنت لا تأكلين .

وأضاف بطبيعة تربيته المدللة :

— لا أستطيع أن آكل وحيداً حيال شخص ينظر إلىّ .

— لكن ... نعم ياعزيزى : إنى أشعر بجوع شديد .

وبالرغم من أن حلقها كان منقبضاً أرادت ابتلاع لقمة . وبعد أن ترك المائدة ، ونأى متجهاً نحو جناح العدوة ، نادته قائلة :

— أريد أن أحدثك ياطفلى .

فتردد لحظة ثم تبعها إلى المكتب ساخطاً وقال لها :

— ماذا تريدين منى ؟

ووربت ضلف النافذة ونظرت ، فلم تتمالك أن تهمس إليه :

— إننى قلقة من أجلك ، فالحياة التى تسير فيها لا تفيدك

شيئاً . إنك كما تقول مارى دى لادوس « تأكل من دمك . » فلا بد أن تجد ما يلهيك . . . أن تقابل هؤلاء القوم . . أنت فى قوة سنك ونحن على بضعة أشهر من انتخابات البلدية .

فزمجر قائلا إن كل شىء قد انتهى منذ زمن بعيد كما كانت تحب . وظلت صامتة ، فسألها ما إذا كان هذا كل ما تريد أن تقوله ، فأمسكت بذراعه وقالت بحرارة :

— لا أريد أن تلقى بيدك إلى التهلكة . لن أتركك تموت . . .

— كما فعلت بالأخرى ؟

فصاحت أن لا شأن لها بموتها ، ولا شىء كان يدل على هذا الالتهاب . ولماذا لا نصدق كلام الطبيب دلوك أن لا داعى للسهر عليها ؟

— ومن جهة أخرى فقد ذهبت لرؤيتها فى تلك الليلة .

— أعلم ذلك .

— وقرعت بابها وسألتها هل هى متعبة ، فأجابتنى بأنها ليست فى حاجة إلى شىء ، أضف إلى ذلك أن فرصة علاجها لم تكن قد فاتت : فقلبها هو الذى خانها كما قال دلوك مائة مرة . وما كنت أنت ولا أنا بقادرين على أن نصنع شيئاً من أجلها . كان من الممكن أن تعيش عدة أيام أخرى ، لو أنها كانت مصابة بالالتهاب وحده ، ولكن زوجتك كانت مريضة بالقلب .

أرادت أن تقنع ولدها وتقنع نفسها كذلك ، وهى تذرع الغرفة جيئة وذهاباً ، ثم رفعت صوتها كأنها تريد أن يسمعها شخص غير مرئى يسترق السمع . ونأى عن الباب قليلا وهى تتحدث ، ثم غطى وجهه بيديه وصاح قائلا :

— أنت قتلتيها ، أنت تسببت فى قتلها يوماً بعد يوم .

فاحتجت غاضبة وقالت :

— هذا غير صحيح ، كنت أدافع عن نفسى وكنت على حق . وعلى كل فقد كنا شخصين اثنين !

— ماذا تريدين قوله ؟

— من منا نحن الاثنين أساء إليهـا إساءة أشد ؟ أجب !

ومرق فيها الغضب كشعلة من النار ، فاحترق كل ما كانت تتمناه منذ هنيهة من التنازل والتسامح . ولم يعد مجال للتضحية ، وأصبح همها أن تنتصر على الولد الثائر كما كانت تفعل معه من قبل ، فظلت تصيح :

— إذن يا بنى فلتعلم أن أمك قد احتملتك كثيراً ، وها هى ذى خمسون سنة ألازمك فيها ملازمة الظل . إننى أمك ، ومع ذلك فإنى أسائل نفسى كيف لا أزال على قيد الحياة . ولما أن جاءت الأخرى إليك . آه ! البائسة ! كنت

على يقين أنها لن تبقى معك طويلا. إنك لم تكمل معها عاما...

— أسكتى ! لا تزيدى كلمة

وتراجعت حيال وجهه الأغبر ويده المرتجفة المرفوعة. وظل يقترب منها فاستندت على الحائط وردت على المجنون بابتسامة ، كأنها تتحداه : « اضرب فى البطن . »

ولكنه توقف فزعاً مما كان على وشك أن يحدث. وأفاق فنظر إلى العجوز وهى مبهورة الأنفاس ، أمه التى خرج منها وتربى فى أحضانها . ونظر إليها برهة ، وانبثق حنان الطفولة الخفى فى صيحة بائسة كأنه يحطم غلافاً متحجراً :

— أماه !

وبما أنها كانت قد انهارت فوق الأريكة ، أسند رأسه على كتفها الظاهر فعاد إلى ملجئه الحى يكمن فيه ، فما له من ملجأ آخر فى الوجود يلتجئ إليه منه ! مثله كمثل رجل

يئس من الحياة فأراد أن يهجر الأرض فلم يجد مهرباً منها إلا إليها فاستلقى عليها ، وخدش بها وجهه ونسم من جوفها الظلام . هكذا كان هذا الرجل وهو يضم إلى آخر طاقة أمه العجوز . ولبثت وهى خائرة القوى ، محطمة تتذوق سعادة هذه اللحظة وجفونها مغمضة ، وهى تعلم أنه سيثوب عاجلا إلى نفسه وينصرف عن حنانه . وأيقنت أن ضعفه الوقتى سيكون لها مصدر حزن جديد .

آه ! كم تمنت أن تكون هذه اللحظة أبدية ! غير أن ذراعها تتخدر تحت عبء رأسه المتثاقل ولكن أليست هى أمه التى سهرت عليه وتعذبت من أجله فى ليالى الشتاء القوارس أيام أن كان لا يستطيع أن ينام إلا وهو ممسك بيدها ، فتظل ساعات طوالا تبسط إليه ذراعها ، خارج السرير ، وتترك يدها لهذا الجلاد الصغير ، ولا تغادر شفتاها جبهة ولدها الشيخ وهى تشمه كما تفعل السائمة . لا . لا لن تثيره

مرة أخرى . ها هى ذى الآن تطرب لهذه السماء الجديدة التى لمحتها . أنها لا تطلب شيئاً أكثر من ولدها الموجود بين يديها . إنها ستعيد إليه لذة الحياة ، وستلده مرة أخرى . كذلك كانت تسلم نفسها إلى الخداع بأن حبيبها يستطيع مثلها محاولة أن يولد من جديد . ولم تكن تفهم أن هدف عاطفتها الخاصة كان هنا ، حياً ، ماثلا بين يديها ، لاصقاً بركبتيها ، ولم تكن تطلب أكثر منه لكى تتحدى به القدر . أما هو ، ذلك الولد الفاسد ، فقد كان فى خلال نصف قرن يحطم اللعبة بعد الأخرى . وفقد اللعبة الأخيرة فى اللحظة التى اكتشف فيها أن ثمنها غالياً لا يقدر . فانظرى إليه ، أيتها المرأة البائسة ، ها هو ذا ينهض فيجفف بظهر يده جبينه الذى يتصبب عرقاً ، ثم يتباعد فتسمعين خطواته يتلاشى وقعها فى المنزل الهامد .

والدة

١١

وتلت ذلك فترة تراخٍ استمرت بضعة أيام ، همد فيها كل شيء ، حتى السماء توقفت عن نشاطها ، فهبت عواصف طوال الأسبوع ، على الريف المهجور (وكان هـذا فصل تعرض الشمس لأشجار الكروم) . وكأن القاطرات قد أصابها من هذا الخمول شيء ، فغدت تشق طريقا متعبا فى أيام القيظ ، فقد قيل إن الحرارة مددت قضيبا بين بلدتى لاريول وطونيا . وأخيراً ، فى ذات ليلة ، تنبهت الأم وابنها على تهامس أوراق الشجر ، وقد ارتشفت بلهفة أول الغيث حتى إن أكثر

من ساعة قد مضى قبل أن يمس المطر وجه الأرض المحترق مساً يشق الأرض ويصعد ريحها . . . ريح من الرغبة ، لم تبلغ حد الإشباع بعد ، إلا أنها قد استحالت بهجة وسرورا . وفى المناطق النارية تتفق أهواء الرجال مع قوة السماء ، وقد تهدأ معها . ففى خلال وجبات الطعام لم يكن فرنان معرضا عن أمه إعراض المبغض بل كان يصطنع التوقير والعناية ، ويبذل وهو على المائدة كل رعاية جديرة بسيدة عجوز ، فلا يتركها إلا بعد شرب القهوة ، فصارت من شدة حذرها واحتراسها لا تحاول الإمعان فى هـذا الفوز الذى أحرزته والرضا الذى نالته ، ورددت فى نفسها : « سأنقذه . . . » ولـكن وا أسفاه ! فهما كانت معاملته لهـا بالحسنى ، فإن جرحه من أجل عدوتها لا يزال ناغلاً يؤلمه .

كان يحيط بهذه الرواية ذات الفصول ، أشجار

باسقات ، كالخزامى ، والحور وجوز الهند والجنار والقرو وقد تمايلت أوراقها المثقلة بالمطر ، تحت سماء لينة . وفى هذه الأشجار ، استطاع الابن والأم أن يحتميا من النظرات الأجنبية . وقد جرت العادة أن كل ما يقال عن القرية وعن أقاويلها لا يكون صحيحا إلا فى محيط الفقراء الذين يعيشون ، أبوابهم متلاصقة وحيطانهم متجاورة . أما هذه الممتلكات المحاطة بالأسوار ، المحاصرة بالأشجار ، فلا شئ أقل منها تعرضا للأنظار وأحسن ملاءمة للألغاز ، إلى حد أنه يبدو أن الذين يعيشون فيها لا صلة لهم بالخارج ، اللهم إلا ما كان يربط بعضهم ببعض أو يربطهم بالسماء . أما فى المدينة فقد اعتقد أهلها أن سلوك آل كازيناف سليم لا غبار عليه : كلما ضعف تأثرنا بفقد فرد من الأسرة ازدادت مظاهر حزننا الخارجية . وهكذا كان يؤول اعتكاف الأم وولدها فى المنزل .

فى خلال شهر سبتمبر الزاخر بالمطر ، خرج فرنان ذات صباح وعلى كتفيه حرملة ، وعلى رأسه قلنسوة تأخذ شطراً من وجهه ، وأخذ الطريق الضيقة التى تفصل الحديقة عن سكة حديد بوردو — ست . فقرأ على عربات البضاعة المخزونة فى ذلك المكان : « رجال ٣٨ — ٤٠ » . ولم يدرك ما تنطوى عليه هذه الكتابة من فأل مخيف . ثم عاد إلى منزله فتركته أمه حتى يقترب منها ، وتفرست فى وجهه المستغلق ، ولاحظت مظهر تراخ وهدوء يزداد يوما بعد يوم ، فاعتقدت فى بادئ الأمر أنه يتظاهر بذلك . وهل كان فى استطاعته أن يحتفظ بهذا التغير ذلك الوقت الطويل ؟ لابد أن ساوة قد أتت إليه من جهة أخرى — ساوة مجهولة . إن صحته قد تحسنت مرة أخرى دون أن يكون لها يد فى ذلك التحسن ، وهى التى طردت فيما مضى الخادمة ؛

لأنها زعمت إنقاذ فرنان من الحمى القرمزية التى كان قد أصيب بها . واليوم تنقذه الميتة ولا سلطان للأم على طردها . وهكذا انهار عمادها الأخير : فهى لم تعد عليه بنفع ، ولم تكسبه خيرا ، ولم تذكر ، منذ بدء طفولته التى مسختها الأهواء ، أنه ابتسم كالطفل ، بمثل تلك الابتسامة المبهمة الوديعة . وكم رددت الأم فى خلال خمسين عاما : ماذا يحدث لك بدونى ! من حسن حظك أنى على قيد الحياة ! فإذا ما فقدتنى ! » فوا أسفاه ! لقد أصبحت الآن أمام عينيه شيئاً لا قيمة له ، ولا غناء فيه ، وقد استطاع بدونها أو قل بالرغم منها ، أن يستعيد هدوءه . إن العجائز مؤمنات بحاجتنا إليهن ، وأن الله ، لذلك ، قد أطال فى أعمارهن . فمنهن من تموت يأسا من كونها أصبحت لا تجدى فتيلا ، ومنهن من ترتد إلى الحياة ، بعد أن أوشكت على الموت ؛ لأن ابنة أرملة أو

أطفالا يتامى يصيحون بالنجدة والمعونة . وتلك فياستيه قد عجزت عن القيام بخدمة لولدها ، وهل استطاعت إسعاده حين كانت تسيطر عليه ؟ وناوأها سكون الليل فلم تستطع أن تنام ، وأبرمها وجود الغرفة الواقعة خلف الجدار خالية خاوية لا ينام فيها الولد العزيز . وخطر لها : « إن أية حياة أخرى ستقضى عليه ، وسيموت إذا ما استسلم إلى نفسه . . . » ما الذى كان يدفعها إلى هـذا القول ؟ الهواء البعيد يعدو فى منطقة اللاند ، ويصل إلى الضفاف النائية المجهولة حيث كانت أبعد أشجار الصنوبر تنأى عن أعناب سوتيرن المقدسـة . وهناك توقفت الريح ، لا تعرف لهـا وجهة ، ثم انقضت على أشجار الحديقة فجأة ، فاهتزت كلها مرةً واحدة .

وعلى كل ، فلم يبق لهـا إلا عمل أخير تسديه إلى الحبيب . إن الميتة التى كانت سلوته قد أثرت فى عقله ،

لا فى جسمه المعذب . ذلك الجسم الذى هو بضعة من أمه وكان ملكا لها ، فيجب أن تُعنى به . وقد استشارت الطبيب دلوك خفية بعد أن رفض فرنان أن يقابله ، وأشار الطبيب أن يقضى فرنان على نفوره من الطعام بالإكثار من تعاطى مقادير من الدم . وحرصت فيلستيه منذ ذلك الحين على أن تصحبه معها إلى المائدة حتى تشجعه على الأكل . وبالرغم من أن حالة شرايينها كانت تلزمها بنظام خاص للأكل إلا أنها كانت تملأ جوفها لحوماً حمراء . وكانت فى كل وجبة تدور هذه المناقشة :

— لم تأكل يا عزيزى .

— وأنت أيضاً .

— ولكن ألا ترانى آكل ؟ خذ قطعة من اللحم .

— سآخذ منها إذا أخذت مرة أخرى .

ليس الاستشهاد قاصراً على التضحية فى سبيل الرفعة فحسب ، بل قد يضحى المرء بحياته بأن يختار لنفسه أحط أنواع الموت .

لم تتعود أن تعيش وحيدة : طافت بعد الظهر فى المطبخ ولم تمنع نفسها من أن تبوح إلى مارى دى لادوس .

— لم يكن يطيقها وهى على قيد الحياة ، فلا معنى لأن يحزن عليها بعد الموت .

— حقاً ياسيدتى !

— ويتحدث عنها أمامى بقصد تعذيبى . ولقد أخطأت حين تركته يعرف أننى أضيق بذلك الحديث ذرعا وأتمزق منه غضباً .

— حقاً ياسيدتى !

كانت مارى دى لادوس تطحن البن وهيناها كعينى

كلبة تبسط ذراعيها ولا تغادر بصر سيدتها خوفاً من أن تتأخر ثانيـة عن إظهار الاستحسان لحديثها . فكانت ابتسامة الطاعة على وجهها دائماً ، وجه العبيد الأرقاء . ومع ذلك فقد ظلت خرساء لا تتكلم حين قالت لها السيدة :

— إذا مات المرء استغرق زمناً طويلا فى موته ، ولكن كما يقال ، سرعان ما يذهب الموتى .

سكتت مارى دى لادوس ، كأنها لا توافق على هذه العبارة ، فقد تعودت كل يوم أحد ، فى قداس الساعة السابعة ، عندما ترجع من المائدة المقدسة وعلى شعرها نقاب الزوجية ، كانت تحس من صميم قلبها الوفى أن أسرتها الراقدة قد بعثت من جديد منذ عهد جدتها ، التى لعلها قد تُركت تموت جوعاً ، ومنذ أبيها وأمها القاسيين حتى زمن زوجها ، ذلك الرجل العابث جاورست

الذى أخـذها ، ذات مساء من صيف ٤٧ بين غصون الخلنج ، فأصبحت منذ ذلك الحين مطية له مدة ثلاثين عاماً ، وحتى طفلها الذى فقدته وله من العمر ثلاث سنوات . وهكذا كان إيمان سكان ضيعة قديمة مجهولة يستيقظ فى هذا القلب العامر بالله ، ولا تزال مارى دى لادوس تدعو لجهرة أجدادها المجهولين أن يسكنوا فى قلبها وأن يجتمعوا حول الله الذى كان دائماً موجوداً فيه . ولكن فيلستيه أردفت قائلة :

— إننى جد واثقة من أن الغائبين مخطئون دائماً كما يقولون .

— أوه ! نعم .

ولم تزد فيلستيه كلمة . وتركت المطبخ مرفوعة الكتفين وبدأت تدرك أن الغائبين على حق دائماً : فهم الذين لا يمنعون الحب أن يأخذ مجراه ويحدث أثره ؛ وإذا

نظرنا إلى حياتنا بدا لنا أننا دائما مبعدون عن أحب الناس إلينا وأقربهم إلى قلوبنا . وربما كان هذا راجعاً إلى اعتقادنا بأن ملازمة الحبيب مما يضعف الحب والإعزاز . فالحاضرون هم المخطئون .

١٢

وحل الفصل الذى تبدأ فيه البرودة المنعشة ، ويتردد المرء حيال أول نار توقد كما يتردد أمام مصير مجهول . وأصبح آل كازيناف قبل كل وجبة وبعدها يمكثون فى المطبخ . فكانت فرصة لاقتراب الأم من ولدها ولم يكتف فرنان بإظهار عدم الاكتراث وإنما دل حديثه على همل خفى يجرى فى طيات نفسه فكان يسألها بشغف غير منتظر :

— هل كان أبى وأنت يحب أحدكما الآخر ؟

سؤال غريب من شخص كان فيما مضى لا يفكر فى الموتى بقدر تفكيره فى الأحياء ! ولم تحر أمه جواباً ؛ إذ قدرت أن كلمة الحب قد أخذت فى فم ابنها معنى جديداً ، عميقاً ، فألح عليها قائلا :

— هل كنت تحبين والدى قدر ما تحبيننى ؟

فأجابته أن « لامحل هنا للقياس » ؛ فلا علاقة مطلقاً بين مايوحى إليه الحبيب من الحاجة النهمة إلى السيطرة الروحية ؛ فكل آلام المحب ولذاته معتمدة عليه راجعة إليه ، أو قل إن حياة المحب متعلقة بحياة المحبوب ، وبين هذه الرابطة المعتادة أو الزمالة التى كانت بين الأرملة والراحل فقطعها الموت فى زمن مبكر دون أن تذرف عليه دموعاً غزيرة . فقد مات نوما كازيناف وحيداً فى المنزل ، إذ حدث فى عام وفاته أن ذهبت فيلستيه مع فرنان لمعالجته بمياه بلدة سلى . وعلمت بحادث سقوط زوجها فى الطريق أمام

الوجود إلا إلـهاً واحداً وإلاّ حباً واحداً . وبصره مثقل بالنوم يشخص ، بين لحظة وأخرى ، إلى الشبح المظلم المزدوج الماثل أمام الموقد . وغسلت مارى دى لادوس الأوانى فى الدلو كما كانت تفعل منذ ستين عاما . ثم رجعت ، فوجدت حفيدها راقدا ، فاغر الفم ، مسند الرأس إلى المنضدة . فتأملته : وأضاءت ابتسامة تفوق حد الوصف وجهها المنحوت من فروع البقس العتيق ، وجه العذراء السوداء . وحملته بين ذراعيها مع أنه كان فى عمر يسمح له بالقربان الأول ، وظل رأسه الجميل ثابتا لا يتحرك ، وساقاه المخدوشتان القـذرتان تترجحان ، وحذاؤه الحديدى يشبه حافر الحمار الصغير . حملته معها دون أن تنثنى : فقد حدث وعمرها اثنا عشر عاما وهى خادمة لأجير فى إحدى القرى ، أى خادمة خدم ، أن كانوا يجبرونها على أن تمسك طفلا فى كل يد ، ثم يربطون المولود

الجديد فى ظهرها النحيل : فإذا ما بكى راغوا عليها ضرباً . . .

وشعرت فيلستيه أن الحبيب ينظر إليها ، فشخصت إليه ولم تحظ منه منذ أيام بمثل تلك النظرة العذبة . وتحاملت ، من فرط تأثرها ، على قدمين مثقلتين ، وطوقت بيديها عنق ابنها ، وجذبت رأسه نحوها وقالت له :

— إننى أحظى بطفلى من جديد فهو يحنو على أمه العجوز .

آه ! لو كانت تقدر ، قبل أن تخاطبه بهذه اللهجة الحانيـة ماذا تكون إجابته عليها ! إذن لانصرفت عنه ولامتنعت أن تفتح له قلبها ، فلا شك أنه قد طعنها بضربة فى صميم قلبها حين أجابها بقوله :

— إنها « هى » التى تريد أن أعاملك بالحسنى . . .

ثم طبع قبلة على خدها .

وانصرفت عنه ، وتباعد هدير قطار البضاعة ، وأحست الأم بمرارة هذه الكلمة الشنعاء تشق طريقها فى قرارة روحها . إنها أصبحت تدين للعدوة برحمتها . إذاً وجب أن تخضع لهذا العار . ولقد أحب ماتيلد حتى بمثها من جديد وأوهم نفسه بوجودها فى نفسه وفى خارج نفسه . ومن هذا الوجود استمد هدوءاً لم يعهده أيام أن كان فى قبضة أمه . وأمطرت السماء على الممرات المنثورة بأوراق الشجر ، ولمع فى الدجى حوض نحاسى صغير كأنه صفحة وجه تتقد .

١٣

فى مساء اليوم التالى ، جلس الابن وأمه فى المكان ذاته وقال فرنان : « نستطيع أن نشعل هذه النار فى غرفة المكتب» ، فأجابته فيلستيه: «سوف يطول الشتاء قليلا.» ذلك أنها تعودت حين كانت فتاة عذراء ، تقطن فى منطقة اللاند النائية ، أن تسهر فى المطبخ المعطر بعبير البلوط والينسون كما هو الحال فى هذا المساء ، وعلى ركبتيها كتاب « الفرسان الثلاثة » وكانت تلقته حديثا ، يضاء بشمعة من صمغ الصنوبر . فى هذه الساعة ساعة وجود الابن وأمه فى المطبخ ، استطاعت مارى دى لا دوس

أن تجلس وهى تغزل . وعوت الكلاب إذ لمحت الخنازير الوحشية تتعقب الأليفة وتجرى وراءها ، وعلى المائدة غطى الأبريق بمناشف بيضاء . وترك بعض الجيران قباقيبهم على عتبة الباب، وتسربت معهم إلى الداخل نفحة من الليل المشبع برائحة صمغ الصنوبر، ومرت إحدى العربات تتقلب على حُفر الرمال . فى هذا المساء صفر القطار وهو يشق جوف الظلام فسمعت فيلستيه دقات صدغها ، فقالت مارى دى لادوس إنها تشعر بثقل فى معدتها، وإنها أخطأت حين أكلت ثانية من سمك الثعابين، وإنما فعلت ذلك لكى يأكل ابنها ثانية. ولا يزال هذا السهم الذى أصابها بالأمس عالقاً بجسدها . ولم تعد تتكلم بعد الآن فربما سببت لها كلمة ضربة أخرى . وأخذت مارى دى لادوس تسمع من ريمون صلاة الايمان وكان يخطئ دائما فى موضع لايتغير فتقول له :

— أعد !

— أؤمن بروح القدس وبالكنيسة المسيحية المقدسة وبقربان القديسين وبغفران الذنوب وبحياة الأبدية .

— وبعث الجسد ؟ أعد !

فأعاد مسرعا ولكنه ، كالحمار الصغير ، وقف عند الهدف ذاته حائراً مأخوذا فقالت له :

— أعد !

وأعاد الكلام فى بطء ثم انطلق يتابع الكلام فى عجلة حتى وقف مرة أخرى أمام « بعث الجسد » وأذناه قائمتان فقالت جدته :

— أين يسبح فكر هذا الماجن ؟ أعد هذه الجملة عشرين مرة .

فأعاد الطفل وهو يضحك كأنه يلعب تلك اللعبة التى

يسرع فيها اللسان قائلا « صلصل الجرس صلصلة » : « بعث الجسد ، بعث الجسد » .

فلما سكت ارتفع صوت السيد :

— بعث الجسد هو عقيدة لبعض الناس . . .

فنفرت مارى دى لادوس ونظرت إلى سيدها على غير عادتها كما هو الحال عند ما تثار المسائل الدينية أمامها ولكنها اطمأنت حين رأته جاداً لا يضحك . وتظاهرت فيلستيه أنها لا تفهم فى أى جسد كان يفكر ، وصرفته قائلة :

— ألا تعلم أننا وعدنا مارى دى لادوس أننا لن نتدخل فى كل ما يتعلق بالإله . . . ؟

وأردفت قائلة :

— ما أشد عذابى !

فلم يجبها وهو يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، بينما كانت مارى دى لادوس توقد الشمعة وبصحبتها الطفل .

وأخيراً وقف جامداً فى الركن الآخر من الغرفة فى أبعد بقعة من النار، وألصق جبينه بالزجاج الأسود، فنادته أمه وهى ضحية ألم عميق فلم يسمعها ! ولم تكن تتصور أن حبيبها فى عالم بعيد عنها إلى هذا الحد . ما بالها لا ترى إلا جسما مظلماً مختلطاً بالليل ؟ وأرادت أن تناديه فلم يخرج الصوت من حلقها ، ما بالها لا تراه ؟ لقد اختفى ، تلاشى ، فى ظلمات أواخر الخريف الرطبة . وأخيراً تجمعت فصاحت بعد جهاد عنيف :

— أين أنت ؟

فأجابها دون أن يدير رأسه : إنه ينصت إلى سقوط المطر. ثم ألصق وجهه من جديد على لوح الزجاج . وهكذا بقى زمناً طويلا فى خمول لطيف مصغياً إلى صوت نقطة واحدة من المطر ، تتساقط على ورقة شجرةٍ من المانوليا كانت تلمس النافذة ، فإذا ما هبت الريح تساقط المطر من

الأوراق ، وإلى صوت قطار سريع ، مر ولم يقف ، كأنه لمح خاطف من السرعة والمجازفة ، قد أضاء فى جنح الظلام . ثم إلى صوت آخر ، ارتفع أخيراً ، صوت غطيط ظن أنه يعرفه : فقد حدث منذ عدة أسابيع أن أمه وقعت بعد العشاء فى سبات قصير كما يقع المرء فى حفرة ضحلة . وأخذت تغط بصوت أجش مطرقة الرأس ، فاغرة الفكين . وأراد فرنان أن يجمع شتات فكره ، ولكنه ضاق بهذا الغطيط ذرعاً ، وأنصت ، فلاحظ أن للغطيط صوتاً عالياً مختنقاً على غير ما تعوده من صوتها ، فالتفت وأخذ المصباح من فوق المائدة واقترب من النائمة فلم يفطن من أول وهلة : ففى وجهها الأغبر ، عينان تنفتحان لا حياة فيهما ولسان يندلع بعضه من جهة الشمال . وكانت جامدة لا تتحرك ، وأما الجهة الأخرى فقد كانت متشنجة عوجاء .

١٤

« لم يصنع بعد على هـذا النمط » هكذا قال الطبيب وقد أخذته الدهشة من أن العجوز لاتزال على قيد الحياة . ولقد ظلت مفلوجة ، لا تنبس ببنت شفة . ونقل سريرها إلى مكتب الدور الأرضى حتى تمضى أيامها فى المطبخ .

قالت مارى دى لادوس :

— لابد أن شخصاً أو شيئاً يشـغل ذهنها ؛ فإنها لاتكاد تسمع القطار حتى تنظر إلى ساعة الحائط لتعرف هل فى الساعة تأخير.

حقا لم تكن تعيش إلا لتنتظر فرنان : كان يدخل فى الصباح حوالى الساعة الثامنة فإذا بقهوته الممزوجة بالحليب معدة له فى ركن من المائدة ، فيقبل جبين أمه وهى جالسة تنظر إليه وهو يأكل . وكم كان فى بادىء الأمر يضيق بهذه النظرة المظلمة الدامية ، أما الآن فهو لا يعيرها التفاتا . فإذا ما انقضت وجبة الظهر ، وكان يتناولها وحده ، جلس لحظة حيال هذه العاجزة يتصفح جريدة «جيرندة الصغيرة» ويحتال ، لتغطية وجهه بالجريدة المنبسطة بينه وبين هذه النظرة الجامدة الجائحة . ولقد كانت مارى دى لادوس تقول : « إنها تأكله بعينيها » فإذا ما انصرف بعد قراءة الجريدة نظرت طويلا إلى هذا الباب بعد أن يغلقه ، ودلكت بيدها السليمة صفحات ثوبها حتى أصبح له بريق من شدة البلى . فإذا حانت وجبة المساء عبر الحبيب طريقه إلى المطبخ وبدأت السهرة . وما كان يستر وجهه

فى المساء : إما لأنه كان يحس بنصف حماية من الظلام ، وإما لأنه رضى أخيراً أن يعبد ، والعابدة على حافة القبر . وما كانت تعيش طيلة نهارها إلا لتشبع بصرها فى بدء المساء ، قبل أن يعمها الظلام . وحوالى الساعة الثالثة ، حلت لحظة إنقاذ المرأة الشهيدة . آه ! ما أمر هذا الوجه المنبسط وهو يتدفق حبا لم تُثبْ عليه ، بل ظفرت بحظها منه امرأة أخرى ! ومع هذا فقد دفع فيلستيه كازيناف شعور خفى بأن من الخير أن تتعذب من أجل ولدها . وما كانت تدرى أن تقاسى عذاب الموت .

وقضت نحبها ، فى نهاية الخريف . ويحكى سكان بلدة لانجون أنهم اضطروا أن يمسكوا بفرنان كازيناف ؛ لأنه انحنى على الحفرة انحناء من يريد أن يلقى بنفسه فيها ، ولم يفهم احد أنه كان يحاول فقط أن يلمح بين أشباح القبر فى الظلام شكل التابوت الذى غدت فيه ماتيلد غباراً ورماداً .

١٥

خطر لفرنان ، قبل كل شيء ، أن كاتباً شرعياً سخيفاً كان وحده يصرفه عن ماتيلد . كيف يستطيع فرنان أن يجمع شتات فكره ، وأن يتعمق حتى يبلغ ذكريات زاخرة حيث تسهر روح محببة إلى قلبه ، طالما يحضر ، فى كل ساعة من النهار ، رجل قصير بطين ، فيملى إرادته وينشر أوراقه ويسأل التوقيع ؟ ذلك أن نوما كازيناف ، والد فرنان ، قد حرم ابنه الأكبر من الإرث لصالح زوجته . وما كان لفرنان أن يرفض هذه الوصية غير

الشرعية ؛ فقد كان لا يزال القانون المدنى فى بعض الأسر العريقة ، خاضعاً لإرادة الآباء القوية . فلما بلغ فرنان سن الرشد ، آثر أن يعتمد على أمه فى القيام بأعباء هذا العمل ، فقامت به ، بطبيعة الحال ، عن طيب خاطر . ومنذ ذلك الحين كان فرنان فى كل شهر يأخذ منها ما يلزمه من النقود ، وظل تحت سلطان أمه . وظل هذا الخضوع ، الذى كان مصدر سخرية من ماتيلد ، إلى أن أصيبت أمه بالشلل قبيل وفاتها .

ثم قدر لفرنان ، أخيراً ، أن يوقع بإمضائه ، فخيل إليه أن ما تحدثه موارده وأراضيه من جلبة وضوضاء قد قضت على هدوئه العذب وبطالته المقدسة حيث كان ، منذ قليل ، يعيش مع ماتيلد . ثم عرف كيف أن من الميسور أن يكون له حساب جارٍ فى المصرف ، وأن تنبت شجرة الصنوبر من تلقاء نفسها! وفهم أن والدته حينما كانت

تركب العربة الصغيرة ، فى عيد جميع القديسين لكى « تحصى الجواهر » فى مناطق الرمال كان دافعها الوحيد أن تنسم عبير الصنوبرة النابتة فى مسقط رأسها مرة فى العام ، حين يعتدل الليل والنهار فيهتز قمم الصنوبر المظلمة ؟ حتى حقل الكروم سرعان ما تخلصت منه الأرملة . وكم كان زوجها يحبه ويؤثره على غيره . بينما لم تقبل أن تتخلى عن شبر من هذه الغابات الموحشة التى وُلدت فيها ونشأت على أرضها . وإن فرنان ليذكر أيام طفولته ، حين قام بسفرة طويلة شاقة إلى جده بيلوير ، فعبر بالعربة الصغيرة منطقة سوتيرن ، تاركا حقول العنب ونهر الجارون السعيد ووصل إلى طريق الغابة حيث رعاة البقر يقلبون الأرض بحوافرها . وكانت أمه فى ذلك العهد ، تتلثم بلثام أسود معقود تحت ذقنها . وأخذت مشية العربة ذات العجلتين تهزه وتلقى برأسه إلى الوراء ، فما كاد يلمح سماء أكتوبر

المضطربة منسابة بين القمم السوداء المتلاصقة ، وأسراب الطير تحلق على هيئة مثلث من شاطىء يميد إلى آخر حتى طفق يصيح رعباً . فإذا ما أحدث الماء الغزير منعرجاً فى الطريق ، وتكشف فجأة عن هواء بارد أسرعت أمه فغطته بمعطفها ، فكأنها تبسط عليه جناحاً أسود ، خشية عليه من البرد . وكذلك كانت إذا اشتكى حرارة القيظ وضعت فى قلق أصبعها بين رقبته وياقة قميصه . وحدث ، فى ذات يوم عاصف ، أن أزعج ذباب البقر حصان العربة ، فكسر العريش فى زمن يرخى فيه الليل سدوله بسرعة . وانتظر فرنان وأمه على حافة الطريق ، بينما وقف الفلاح الحوذى يصلح العربة . وتذكر فرنان أنه شعر فى هذه الطريق الخالية التى يغمرها الأصيل بأمانٍ سعيدة ، وبدت بعيداً عن كثبان الرمال العالية ، شجيرات السرخس ترتعش صفراء محترقة . ودوى صياح الراعى كالوحش ، يجمع

الماعز المتفرقة المختلطة فى قطع من الظلمات . . . وكان أكبر لذته أن أمه تصحبه هنالك . . .

نظر فرنان حوله ، فوجد الغرفة التى ماتت فيها ماتيلد ، والإطار المصدف وهى لا تبتسم فيه ، وعصفوراً يتسلق الأغصان ويشدو بصوت من الربيع ، وصباحاً مفعما بالدخان والشمس . ووجد ألا سبيل إلى مناجاة ماتيلد إلا بالصعود من أعماق حياته إلى أعلى قمة لأقرب لحظة من لحظات الماضى . وحاول أن يحنن قلبه ذاكراً كم كانت حياتهما معا قصيرة الأمد . والآن ، ولا فارق فى الموت بين الكنة والحماة : فعدوتها القديمة قد لحقت بها فى المقبرة الثالثة ، الشمالية ، اللاصقة بالحائط . كلتاهما أصبحت رهينة الفناء . ولا يزال فرنان متضايقا من أنه قضى جانبا قصيرا من حياته ، من أجل زوجته ، بينما الأم قد بسطت عليه جناحيها الهائلين طوال السنين الغابرة .

وارتدى ثيابه ، وجاس خلال الحديقة ، ونظر خلسة إلى نافذة المكتب حيث لا عجوز تضايقه ، ولا وجه يتربص له . ولكن لماذا يحس بقلة الرغبة فى اللحاق بماتيلد ؟ ألأنه أمن الرقابة من جانب العجوز ؟ أم أن حب أمه الهائل ، الملح ، كان قد أحاطه بألسنةٍ من النار ، فما زال لهيبها يطارده حتى انطوى على نفسه فهرب إلى ماتيلد ؟ ها هى ذى الشعلة قد خمدت نارها — هذا الموقد الذى كان يُشعل فيه الغضب قد غادر فرنان فجأة ، فتركه ينتفض ، فى وسط الرماد . هنالك قوم لا يحبُّون إلا ليكيدوا قوما آخرين ، فإن أنين المرأة البغيضة هو الذى يدفعهم إلى حب امرأة أخرى .

والآن يقف فرنان ، فى ممر الجنوب ، يتسم عبير الزنبق ، وينصت إلى طنين زنبور ضخم ، ولم يوح إليه

حاجز الحناء بما كان يوحى إليه من قبل . ونادته مارى دى لادوس للطعام ، فأكل بازلّاء طازجة أكثر من عادته ، وجلس بمفرده فى غرفة المكتب ، ولا يزال فيها سرير المشاولة قائما ، فأحس ، فى فترة الهضم ، بلذة عابرة ، وفى ثوانٍ ، تذكر « مزاجه » ، فعقد النية على إرسال برقية إلى شارع هوجورى ، وجلس إلى مكتبه ، وأخذ يستذكر صيغة البرقية ، وكم كان يكتبها أيام أمه ، ويده ترتجف غيظا ، فقد كانت خواطره لا تواتيه إلا بعد مشادة معها ، وكم كانت تسخر منه ، وتصيح به : « سترجع إلىّ فى حالةٍ مرضية ، وستنضج فى خلال ثلاثة أيام ! » وما كان يجهل أنها تكاد تموت من القلق لبعاده عنها ، وأنها لاتذوق للعيش طعما إلا بعودته إليها . ولولا ما كان يستولى عليه من ضيق لما فكر فى مغادرتها . وكم كانت عودته مخجلة له ، عذبة لديها ، فيؤوب إلى الحياة فى جو مفعم بسرور

مؤنب ، وسخرية رقيقة ، ورعاية فائقة ! وكانت فكرة العودة من بوردو إلى هذا المنزل الخالى ، تخيفه فقد كان يخشى هذا الشيخ الفانى المتلاف ، أن يرجع دون أن يلمح أمه لدى نزوله من القطار متكئة على الشرفة المطلة على المحطة ويدها ترتفع إلى حاجبها تحاول أن تتعرف عليه بين قطيع المسافرين . تذكر فرنان هذا كله فزق البرقية ولم يعد يفعل شيئا ، فلقد شاءت أمه ألا يعيش إلا بها ، كأنه متعلق بأنفاسها . ولو لم تتحمل مناقشة ما ، فى عمل ، أو لهو ، أو أمل ، لكان حسبها فخرا أن تكسب هذه النتيجة وهى فى أعماق القبور . فما إن انطفأت شمس الأم حتى دارت به الأرض الفضاء ، كرقعة من الأرض فقدت مدارها .

١٦

سار المتنزهون ، على ندرتهم ، فى الطريق الممتد على طول الخط الحديدى بوردو — ست ووقفوا يراقبون من خلال الأشجار ، ذلك المنزل الضخم الصامت الذى يقال عنه إن أحدا لم يعبر عتبته حتى الآن . ورأوا فى خلال بضعة أسابيع تالية ، أن ضلف النافذة تنفتح . فقد كان فرنان كازيناف يمضى من خلفها ليالى ساهرة ، مستلقيا على فراش ماتيلد . ولوحظ فى ذات صباح ، من منتصف الصيف أن الضلف ظلت مغلقة . وخمدت كل

حياة فى « جناح العدوة » كما كانت تسميه فيلستيه ، حتى إذا حل يوم الأحد تنبهت نوافذ فيلستيه كازيناف ، وبعد فترة قصيرة تنبهت أيضا نوافذ الغرفة الأخرى حيث يتعلل فيها فرنان بالنوم على سرير طفولته ، ولم يكن يذوق طعم الرقاد فى هذه الغرفة أو فى تلك . حتى إذا حل الخريف وجاء وقت الاحتفال بعيد القديس ميخائيل فأقبلت الغجريات لابسات أسمالا حمراء ، وعسكرن إلى جانب سور الحديقة ، وأوقدن نارا ملأت ريحها الكريهة كل مكان — أوصدت إلى الأبد ، غرفتا فيلستيه وفرنان. وكما هو الحال فى أى جسم ضخم يوشك على نهايته ، كذلك كان حال المنزل ، فالتجأت الحياة إلى أطرافه وتركزت فى المطبخ ! واستعمل فرنان سرير المشاولة وكان لا يزال قائما فى الدور الأرضى ، فإذا تنفس الصبح هب يغسل وجهه غسلا عابرا ، ثم يدخل المطبخ فيجد لدى ركن المدخنة كرسيا

كانت أمه تجلس عليه ، تلتهمه بعينيها وهى فى حشرجة الموت .

تراكم التراب فى الدور الأعلى ، فى غرفة ماتيلد ، واغبر زجاج الإطار المصدف حيث كانت تتوارى خلفه طلعة نضيرة لاتبتسم ، وزهور الزنبق التى جفت من شهور ولا زالت فى الاصص التى نسقها فيها فرنان فيما مضى بحرارة وإيمان . وضجّت مارى دى لادوس من تراكم العمل الملقى على عاتقها ، وأظهرت أنها عاجزة عن القيام به كله .

صارت مارى دى لادوس كما كانت فيما مضى ، خادمة خاضعة ترتعد فرائصها كلما وجهت بقول لأنها كانت ترى الآن بوضوح أن الصنم القديم قد تهدم ونزل من عليائه مسلماً لها . ألح عليها فرنان أن تنام فى الغرفة السوداء الملحقة بالمكتب كأيام أن كانت تسهر فيها على سيدتها ، حتى يستطيع أن يناديها فى أثناء الليل بصوته الباكى المتهدج . إنها ملاذه الأخير ، فهى التى عرفت أجداده القدماء الذين

أحبوا طعامها اللذيذ المطهى حسب تركيبات قديمة منسية ، والذى ينشر رائحته حتى أبعد غرف المنزل ، وهى التى أفنت يديها ثلاثة أجيال من آل بيلوير فى شئون الغسيل . ولكن القدر قد طارد فرنان كازيناف ، وطرده ، حتى فى هذا الملاذ الأخير .

حلت فترة قطاف الكروم ، وحل معها إلى المطبخ البط والحمام الوحشى وريمون حفيد مارى ؛ إذ كان أهله يقطفون العنب فى قرية إيكيم عند السيد الماركيز . وأصبح ريمون ماجناً ، حسن الوجه ، كثير الحركة ، أشرف الأذنين ، محرَق الصدر ، كوعاء من الفخار ، عارى القدمين ، نظيفهما . إذا مشى فرقعتا على البلاط البالى ، له ضحكة بتراء تُنفرِخ فى عينين كحبات عنقود من العنب الأصهب . خشيت مارى فى بادىء الأمر أن

يكون الطفل مصدر تعب لسيدها لأنه دائم الحركة ، كثير الدخول والخروج ، يفتح الباب ثم يدعه ينصفق . ولكن فرنان كان يمنعها من تأنيبه ، فقد كان يرنو إلى هذا الشحرور الصغير بمثل تلك النظرة الجائحة التى كانت أمه ترمقه بها وهى صامتة ، فى العام الماضى . وواتته الرغبة فى أن يحدثه ، ولكن ما الذى يجب أن يقال لطفل ؟ أخرج من كيسه علبة مستديرة فيها قطعة من الحلواء كان يحتفظ بها ضد السعال وانتظر حتى مر ريمون بجانبه ، فقدم له الطعم قائلا : « فستقة ؟ » فوقف الصبى لاهثاً ، أحمر الوجه ، وما إن مد يده ليتناولها حتى قبض عليه من ذراعه يريد أن يستبقيه ولكن الطفل حاول أن يطير ، بشعره الأطلس النافش كالريش ، وهو يلفت رأسه ويشيح بوجهه ويدبدب برجليه ...

فلما أيقنت من أن وجود حفيدها لا يسىء إلى

سيدها حاولت مارى أن تستبقيه طيلة الشتاء . ولم يكتشف فرنان خطورة بقائه إلا فيما بعد . ولو كانت فيلستيه لما أضاعت وقتها فى بحث مثل هذا الطلب . فقد كانت تعلم أن أمثال هذه الطبقة « لا يُرتبط معها بشىء » وما كانت تتردد وهى تطرد مارى إلى الفرن وتصفها بالوقاحة أن تقول لابنها العزيز : « لولا ملكتنى ! لحسن حظك أننى على قيد الحياة ! لولاى لوقعت فى الشرك ، فإنك عاجز لا ترى أبعد من أنفك ، ومالديك من قوة الدفاع أكثر مما لدى الطفل . ولولا سهرى على المنزل ، وعليك لمسّك الضر من كل جانب . » أما الآن فهى ليست بجانبه ، وما كان فرنان يقدر خطورة بقاء هذا الطفل ، وعلى كل ، فالذى حدث أن مارى قد رجت أهل ريمون أن يتركوه عند السيد كازيناف ، فتظاهروا بالموافقة شفقة على سيدها .

ولم يلبث فرنان أن ضاق ذرعاً بهذا الماجن النهم ، القذر ، وأصبحت مارى لا تعنى بسيدها الهادىء عنايتها بدولاب الأطعمة أو ساعة الحائط . ولاحظ أن مارى دى لا دوس قد تراخت فى خدمتها وتهاونت فى شئون منزله ، وأهملت ذلك الصنم الهرم المخيف ، وانصرفت إلى الصبى المشرق الذى كان من دمها . ولم يعد من اليسير أن تعد الحساء إلا بعد جلوسه إلى المائدة ، فقد كانت دبدبة قبقابه على سلم مدخل البيت مؤذنة ببدء ساعة الأكل . وحدث أن أصيب ريمون فى ديسمبر بالتهاب خفيف فى حلقه ، فدفعها ذلك إلى مغادرة الغرفة التى كانت تنام فيها قريباً من سيدها . ومما زاد الحالة سوءاً أن أقامت أم الطفل فى المنزل بحجة علاجه . وكم كانت مارى دى لادوس تخشى هـذه المرأة . هى امرأة من منطقة اللاند ، هتماء سوداء ، تذكر عيناها ومنقارها

بشكل دجاجة نهمة . أما أبوه ، وكان يعمل فى مزرعة قريبة ثم يعود فى المساء إلى منزل فرنان أيضاً ، فهو من منطقة الجارون ، فحل قوى ، برز سرواله الأكرش المحوصل ، من بنطلونه الازرق ، وعجز الحزام عن حبك جوانبه — إنه هرقل الذى حطمته وأعيت قلبه سوتيرن القاتلة . ونقه الطفل ومع ذلك فكان الزوجان يتخذان المطبخ فى كل مساء ، مقراً لتناول الطعام ، حتى اضطر فرنان أن يأكل فى حجرة الطعام وهى قارسة البرد لا يجدى فيها إيقاد النار ولا يخفف من رطوبتها . وسمع فى خلال وجبته القصيرة ضحكاتٍ فظةً ، وأصواتاً كعواء الكلاب ، فإذا ما فتحت مارى الباب للقيام بخدمته ، التزما الصمت ، فلا يسمع إلا تمتمة لهجتهم المحلية ، وصليل الملاعق والآنية ، فاذا أوصدَ الباب عادا إلى الضحك والعواء .

لم يدر أحد منهما أن فرنان وهو فى غرفته القارسة البرد، التى كان يبغض ألواحها الخشبية الباهتة، الزائفة، لم يكن وحيداً. فقد كان كلما رفع بصره عن وعائه بدا له مكان أمه الذى جلست فيه زهاء نصف قرن، مهيبة عزيزة الجانب. وكم كانت، وهى فى جلال الموت، تثير الهيبة والعزة، بوجهها المتأله العبوس، فى قلب ولدها الضعيف. ماذا! ألم يئن له أن يطرد هذه البراغيث من المنزل؟ وتذكر فرنان تلك الإلهة الرهيبة التى عرفت، بتقطيب حاجبيها أن تستير طوع أمرها الناس، الوسطاء، الأجراء والخدم جميعاً. ومد إلى «الوالدة» العظيمة يده متوسلا، منهزماً كإنياس الهرم وهو على وشك الهلاك. لقد أقر بانه عبد تلك المرأة الجبارة، أمه العجيبة! كيف تجاسرت مدرسة صغيرة ساخرة على أن تقف فى طريقها؟ يا ماتيلد إن شبحك جاثم على هذه المائدة بعيداً

عن النار ، فى وجه تيار الهواء ، كأنك على قيد الحياة لم تتقدسى بعد بالموت . هكذا تذكر فرنان ذلك الظهر المحدودب ، والجسد الطليح ، والعينين الصفراوين اللتين تشبهان عينى قطة مطاردة .

اهتز المنزل بمرور القطار السريع وحال صياح فى المطبخ دون سماع هديره فوق نهر الجارون . ومس فرنان طائف من نزوات أمه — تلك النزوات التى جعلت العجوز الضخمة الوحشية تدبدب برجليها . فما إن انتفض قائماً وتقدم نحو البابْ حتى ظهرت مارى دى لادوس تحمل إناء للبن . فحملقت فى وجه سيدها ، وكانت حاذقة فى رصد علامات العاصفة على هذا الوجه ؛ فقالت بصوت مختنق :

— سأذهب لأنبه هذه « المرذولة » فإنها تقلق راحة سيدى .

وعادت إلى المطبخ مذعورة ، وكانت هذه المرذولة تبث فيها الفزع الذى تعود أن يوحيه الصبية إلى عجائز منطقة اللاند ، فوجدت موضوع النزاع أن زوج المرذولة قد سلب منها مالها القليل الذى اقتصدته تدريجياً ، وأخذ يتهمها بأنها لا تزال تخفى نقوداً . ولم تمض بضع ثوان حتى كان فرنان يسمع صوت مارى العجوز وحدها تتحدث . ثم نبحت المرذولة فجأة بلهجة المنطقة . وليس أدل على العزلة الشاذة التى يعيش فيها فرنان كازيناف من جهله بهذه اللهجة . ولما ألصق أذنيه بالباب فهم أن مارى كانت تتحدى أولادها . ولكن ماذا يطلبون من العجوز ؟ سمع كلمة « سيدى » تتردد كثيراً فى أحاديثهم ، فمن الجائز أن يكون هو موضوع المشادة . ولما كان فرنان ردئ السمع ترك غرفة الطعام ومر بالدهليز ، فأيقظ وقع خطاه صدى غرفة فسيحة ، تنتهى بأبواب خالية من الضلف ، وتقسم رحبة

طويلة إلى رقعتين مضيئتين فى ليلة قارسة البرد . ثم أعاده الممشى إلى باب هذا المطبخ الواقع أمام السلم الكبير . فسمع هذه المرة وهو يرتعد فى الظلام كلمة «الماجن» علاوة على كلمة « سيدى » التى كانت ترددها وسمع مارى تصيح بلغة واضحة : « ولكنى أخبركم أنه لم يسأل مرة واحدة عن أخبار هذا الماجن ، وأنا أدرى بسيدى ، فهو لا يتعب نفسه فى سبيل الماجن ! كان الصبى سلوته بضعة أيام ، أما الآن فإنه لم يعد يقبله ، وعلى كل فلا يمكن أن يفرض عليه . . . » فقاطعتها المرذولة عاوية : « نعم ! إن فى إمكانك أن تفرضى عليه ما تريدين . لن يستطيع هذا الشيخ الفانى أن يعيش بدونك ، ولكنك لا تحبين أسرتك . . . » واستأنفتا نباحهما بلهجة قروية .

نفض فرنان قامته العالية ، واحس بأمه تحثه إلى الامام ،

لأنها كانت فى صميم نفسه ، كانت تملكه . ماذا ينتظر ؟ لم لايدفع باب الغرفة دون استئذان ، ويحطم هذه المائدة بضربة من قدميه ؟ ولكن قدميه تخونانه وقلبه تختل ضرباته . « فالنوم قبل كل شيء . . . » وارتمى على صندوق الخشب المغلق بعض الإغلاق ، ففرقع الغطاء وقاطع الصوت المدوى الصادر من وراء الباب ، فنهض وذهب إلى المكتب حيث كانت النار قد خمدت . وأخيراً ، بعد أن استلقى وأطفأ شمعته ، لاحظ أن مارى أهملت إغلاق الضلف ، فرأى من سريره صفاء الليل ، وقد ظل الجو ممطراً طيلة النهار فباتت الأشجار تنقط فى هدوء رائع ، فلم يكن فى الكون إلا صوت هذه الدموع الساكنة . فسرى إليه هدوء وروحانية ، كما أنه أحس بأن من وراء حياته القاسية ، من وراء جفافه الروحى ، سلطة من الحب والسكون ، حيث تستحيل أمه امرأة تختلف عن التى استولت عليه

كالشيطانة ، وحيث تشخص إليه ماتيلد بوجه منبسط هادئ إلى الأبد — ابتسامة قديسة .

وما إن طلع النهار ، وأيقظه انهمار المطر ، وقلب بصره فى هذا الصباح الحالك ، صباح الشتاء — حتى ثار بغضه ، ونأى عن ذهنه ما كان غمره من إحساس الليل الجميل بتلك السعادة المجهولة ، وتصاعدت فيه بواعث بغضائه مثل مد البحر على هذا الصباح الكئيب . فطوى فى ملاءته جسمه الفانى المتألم ، وخيل إليه أن النهار أمام عينيه ، كطريق رملية قفرة بين أشجار الصنوبر المتقدة ، فأغمض عينيه ليتغلب على الزمن ويقفو بلا شعور أثر هذا الغذاء الروحى . ولكن مارى دى لادوس أوقدت النار ، ووضعت فوق وسادته القهوة الساخنة الممزوجة باللبن ، وهو يتظاهر بالنوم ووجهه لِصْقُ الحائط .

١٧

بعد الغداء، جلس فرنان فى المطبخ أمام النار. وما كان أشد فزعه، وهو متجمع فى مقعده، فى جو ديسمبر القاتم، حين تذكر أمه وهى فى لحظة الموت! دخلت مارى دى لادوس وهى تعين حفيدها الضعيف على المشى، وقد كان يومئذ ينهض من مرضه للمرة الأولى، ونظرت فى السيد تحاول أن تكشف عن قلبه، ولكنه لم يرفع بصره عن اللهب، ودفعت إليه الماجن وهى تقول له:

— ماذا تقول لسيدى؟

فلم يلتفت إليها فرنان ، فأعادت عليه :

— لقد تعذب المسكين ، وأصبح غاية فى النحافة وابتلعت عيناه وجهه .

وتحسست ذراع الولد ، وأخذ السيد الملقاط (الماشة) ثم وضعه لأن يديه كانتا ترتعشان ، ثم قذف الصبى الماجن بنظرة قارسة . وتذكر كلمتين مألوفتين بلهجة القرويين ، رغم جهله بها ، كان يحفظهما عن جده بيلوير وأمه فيلستيه حين كانا يريدان أن يبعدا شخصاً أو حيواناً من أمامهما :

— إذهب من هنا .

وقام ينتفض ، كما كانت تفعل أمه — إلا أن أمه كانت أصلب عوداً وأشد هيبة . فتراجعت مارى بخضوع رهيب ، وأخذت معها الصبى الماجن الأشعث وهو يقفز كشحرور سقيم .

ولبث فرنان حتى المساء أمام مدخنة غرفة المكتب . وفى الساعة الرابعة أحضرت مارى المصباح ، وأغلقت الضلف ، وبقى وحيداً حتى دلّه الصياح على أن أم ريمون فى المطبخ — حينئذ جلس فى الدهليز المظلم على صندوق الخشب كما فعل أمس ولم يتحرك ، وسمع مارى تقول فى أسلوب الرجاء : « لا . لا سوف يسبب له ذلك ضربة دامية . . . » ثم طغت لهجة المرذولة على صوت الأم . وصاحت بأنها ستقوم بشخصها لوضع آنية الطعام على المائدة ، ولم يفهم فرنان معنى هذا التهديد . وأحس بالبرد فعاد إلى غرفة مكتبه ، وظل شاخصاً إلى النار لا يتحرك . وعند الساعة السابعة حضرت مارى دى لادوس لتخبر سيدها أن كل شىء قد أعد . فأخذت المصباح ورفعته كما كانت تفعل كل مساء ، وانسحبت من أمام سيدها وهو يبصر فى ضوئه وجهها الهرم المتهدم . وقام فاخترق

المطبخ ودفع باب غرفة الطعام ونظر فتفهم كل شيء. كانت أمام آنية طعامه آنيـة أخرى موضوعة على الغطاء النظيف. ولما كانت المائدة جد مرتفعة على الصبي الماجن، فقد وضعت المرذولة كوماً من الكتب على الكرسي حتى يتمكن ربمون فى جلسة مريحة من أن يدرك الحساء على المائدة.

كان الطفل يبكى من خلف الباب، ولم يجرؤ على الدخول بالرغم من أوامر أمه التى بدأت ترفع صوتها. وأحس فرنان كازيناف أن موجة من الغضب تنبعث فى نفسه وتشتد، وتسربت روح أمه فى نفسـه، وغزته، واستولت عليه، وتناول قدحاً من زبيب فشربه دفعة واحدة، ثم ضرب بيده فتحطمت على البلاط آنية الطعام المخصصة للولد، وعم المطبخ سكون رهيب، ودخـل السـيد فرأى المرذولة فى مقـدمة الغرفة ذات عينين

كعيون الطير ، ومن خلفها مارى دى لادوس ترفع يديها المعقودتين . وتذكر مرة أخرى اللهجة الريفية التى كانت تستعملها أمه عند ما كانت تود أن تطرد من أمامها إنساناً أو حيواناً فقال :

— أخرجوا من هنا !

فتقدمت المرذولة واحتجت بأن سيدها هو الذى أراد أن يستبقى الصبى الماجن ، وبذلك قد ضيّع عليه فرصة طيبة ، وسيدها كان معروفاً دائماً بعنايته به وحرصه على بقائه . . . فتعلق به الصبى وتعوده . . . وسكتت وهى تنتفض ، والسيد صامت يحدجها بنظرة قارسة ، ثم أعاد عليها قوله :

— أخرجوا من هنا !

فثارت المرذولة وصاحت بأنهم لن يغادروا المنزل إلا بصحبة المرأة العجوز . أما مارى دى لادوس فوقفت صامتة ، وأشاحت بوجهها بعيداً وهى تخفيه بيديها ذات

الأردة المنتفخة . وانفتح باب المخزن المجاور ، وبرز الصبي بوجه كوجه الثعلب الصغير المصيد فى جحره ، وأيقنت المرذولة أنها تغلبت على خصمها بهذا التهديد ، وابتسمت بسمة الفوز ، فكشفت عن لثة صلبة وثغر قاتم . فجعل فرناز يتمزق من الغضب ويستسلم إلى شيطان أمه . وبحثت أصابعه بحركة مرتعشة عَجلى ، فى حافظة نقوده ، عن ورقة من فئة مائة فرنك وقذفها إلى مارى دى لادوس فالتقطتها بنتها ، ثم فتح الباب ، وقال للخادمة بصوت هادىء :

— غداً تعودين لتأخذى حقيبتك .

فنظرت إليه ، وتذكرت سادتها الموتى حين كانوا يطردونها ووقفت لا تنصرف ، فأعاد عليها الكلمة بصوت پيلوير :

— أخرجى من هنا !

وكان شامخ الرأس ، منتفخ الرقبة ، نموذجا من أمه وهى نابضة بالحياة .

١٨

سمع فرنان كازيناف وقع قباقيبهم فى الشارع على طول خط بوردو — ست ، فملأ قدحه ، ثم أفرغه وترك الغرفة . وهدر القطار الأخير على النهر ، ولم يرتجف المنزل . ومشت سحب رقيقة تخفى تحتها قمرا كان يضفى — على خفائه — نوراً على الكون . ووقف فرنان كازيناف ، بلا مصباح ، فى وسط الدهليز يرى هيئته فى المرآة القريبة من الباب . وساد حوله سكون أعمق من سكون الأمسيات الغابرة . وهو لا يذكر أن مارى دى لادوس قد أقلقته أنفاسها

حين كانت تسهر سهراتها الماضية ، بينما كانت أنفاس نائم واحد ، فى حجرة نائية ، تعكر من صفو المنزل ، وموجة ضئيلة من الحرارة الإنسانية تسبب خفقان القلوب . إذن لقد عرف فرنان لذة السكون للمرة الأولى . فكان ينصت إلى المطر — كما كان فى اليوم السابق — وهو يتساقط من الأغصان ، وليس من شىء حول المنزل الهامد إلا هذه الدموع النائحة الهادئة ، التى لعلها جعلته يحس بهذه اللحظة ، لحظة الهدوء القريب من عالم الحب والسكون الذى تعيش فيه أمه الحقيقية — أما أمه التى ألهمته أن يطرد خادمة عجوزا مطيعة — فهى امرأة أخرى لا تزال نابضة بالحياة ، فى مكان آخر ، يستمد منها ، فى هذا المساء هدوءاً من كل غضب ، وعزوفاً عن كل ضيق ، وعزلة سحرية . إنه يعتقد أن هذا كله قد صدر عنها ، ولم يدرك أنه قد شرب نبيذا ، وأن أقل سكرة كافية للإرشاد إلى

الحياة الأبدية . وأخيراً صحا من هذا الذهول على قشعريرة البرد ، واصطكاك أسنانه التى تحكى ما فعلته ماتيلد فى ساعة الاحتضار . حينئذ سار فى الممشى المؤدى إلى «جناح العدوة» ، وتنقل من غرفة إلى أخرى وهو ينتفض ، حتى بلغ غرفة أضاءت بنور القمر النافذ من خلال الضلف ، وقد ألقى على الإطار المصدف قبساً منه ، ورسم على الحائط ظلا أنيقاً لزنبقة ذابلة . وفى أعلى السلم ، انفتح باب المخزن ودخل فرنان . وكان هذا الباب ، فوق الردهة ، يصل بين جناحين ، ووجد كوة تجمع أضواء الليل الصافية كما يجتمع الماء ، ثم تفرقه على صندوق مزخرف بزهور الخزامى المرسومة . ومشى فرنان يتعثر فى أشياء ميتة حتى فتح باب غرفة صغيرة ، كانت مارى دى لادوس تنام فيها قبل أن تقوم بالسهر على سيدتها ؛ وفى هذه الغرفة ، كانت مارى تواظب كل صباح على أن تعمل زينتها ، وفيها

وضعت كل ما تملكه فى الوجود فى حقيبة من الخشب الأسود ، وفيها برد قارس يبعث رائحة الصابون ، وثياب من يدأبون عادة على العمل لغيرهم من الناس . وفيها كوة أضيق من كوة المخزن ، تجمع صفاء الليل على تمثال من الجص للعذراء وهى تبسط يديها . وتركت على سريرها ، فى ظلام الليل ، صليبها المنقوش عليه جسد المسيح ، هذا السرير المغطى بملاءة عتيقة مصورة ، وهى القطعة الفذة والثروة الوحيدة لهذه الغرفة . وكانت مارى دى لادوس كلما قيل لها إن القطعة غالية القيمة ، طرحتها جانباً . وعلى هذه الملاءة جلس فرنان ، وانهمرت دموعه وقد طأطأ رأسه ، وكوعه مرتفق على ركبتيه ، ووجهه بين يديه ، والبرد يُثلج الدمع على خديه ، وجسمه يقشعر خوفاً وفرقا . وأوجس خيفة من أن يموت وحيدا فى الغرفة ، فخرج من المخزن يترنح ، وتشبث بسياج السلم حتى بلغ غرفته واستلقى على فراشه .

ولم يذق فرنان طعم النوم، وشعر بثقل لاحد له على صدره وأنامله. وتراءى له، فى حلم، أن شخصاً يسير فى الحديقة. ولكن بليو لم يكد يشتد نباحه حتى هدأ فجأة. وخطر لفرنان أنه نسى أن يغلق الباب بالمزلاج، فقد سمع الباب الكبير ينفتح بدفع خفيف، ولكن لم يتطرق إليه خوف ما، وإذا بوقع خطوات من جهة المطبخ، تتباعد شيئاً فشيئاً، وضوء ينفذ إلى أرض غرفته. فأغلق عينيه ثم فتحها، فإذا بمارى دى لادوس تمسك بمصباح فتلقى نورا على وجه العذراء السمراء. ولكنها لم تتقدم خطوة، وانتظرت حتى يناديها:

— يامارى!

حينئذ أتت إليه بعد أن وضعت مصباحها، وأحس بيدها البالية تمر على جبهته.

جوهانيه. سان سامفوريان
فى ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٢٣

مكتبة الشيخ محمد بن عبد الله السليم

عابدين ،عبد المجيد
والدة
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01032113

American University of Beirut

[redacted]

General Library